روايات أحلام

أماندا ستيل

صيف بلا ورود

www.elromancia.com

مرمورية

١ ـ ضيف غير مرغوب فيه!

ـ لا بد أنك مجنونة يا مارج.

قال هنري جوردن هذا، ولحق بمارغريت إلى غرفة الجلوس واضاء المصباح الكهربائي قرب الصوفا، وجلس كمن يشعر بأنه في منزله. وهكذا كان فعلاً. لانه ومارغريت ماسترز صديقان مقربان منذ سنتين، وهذا هو منزلها. ومنذ وفاة جدتها لستة أسابيع خلت، أجرت جزءاً منه لرجل وزوجته، ولكن كان لهما غرفة جلوس خاصة في الطابق العلوي.

ووقفت تنظر إليه بعينها اللوزيتين الواسعتين، وشعرها البني يشع في الضوء. وسألته وهي تجلس في مقعد مواجه له:

ـ ولماذا أنا مجنونة؟

ـ انت تعلمين تماماً لماذا... سفرك عبر القناة لترمي بنفسك في عائلة غريبة عنك، في وقت سمعتك مليون مرة تقولين إن العائلة الوحيدة التي كانت لك هي هنا.

- صحيح . . ولكن لم يبق منها أحد الآن، منذ وفاة جدتي. وعندما تتكلم عن الغرباء يا هنري تذكر أن أمي فرنسية!

- آسف. . . ولكنني أنسى هذا على الدوام، إذ ليس فيك شيء فرنسي. أنت انكليزية بالكامل وانتماؤك هنا، وهذه هي الحقيقة. كل ما ستفعلينه هو أنك ستربطين نفسك بروابط روحية وعاطفية.

- لا أظن هذا، على كل الأحوال سأذهب. وهذا ما قررته.

- لو أنني أعلم فقط لماذا؟

وتنهدت مارغريت، كانت متعلقة بهنري، وكانا دائماً على وفاق، علاقتهما كانت علاقة دافئة. والداه، اللذان قضت معهما آخر أمسية لها في انكلترا اليوم، يريدانهما أن يتزوجا. فالسيدة جوردن أعلنت أكثر من مرة خلال تناول العشاء أن عليها أن لا تتأخر في البقاء هناك، وأن تعود قبل انقضاء الصيف، لتتزوج منه بعد انتهاء فترة تدريبه ليصبح مدرساً.

- أنت تعرف لماذا أنا ذاهبة. فسماحي لنفسي بأن أكون غريبة عن أمي . . وعن شقيقتي، يثقل ضميري منذ زمن. وها قد دعتني امي الآن لزيارة باريس، وحصلت على الفرصة التي أريدها، ويجب أن أغتنمها، حقاً، قبل فوات الأوان. إنها مريضة في المستشفى، وقد أستطيع المساعدة في فترة نقاهتها. ألا تستطيع وضع نفسك مكاني؟ تصور لو أنك لم ترى أمك منذ سبع سنوات، ولم تعرفها في الواقع . . . ألن ترغب . . .

- أوه . . . لا تتوقعي مني اهتماماً عاطفياً، لأجل السماء. الأمر يا مارج أن امك لا تستحق أن تكون سوى غريبة، بعد أن هجرتك وأنت طفلة.

- كنت في التاسعة، وهي لم تهجرني كما تتصور. تستطيع القول

ايضاً أن والدي هجر سوزان ايضاً. لقد كانت مسألة زواج لم ينجح، وعندما افترقا أخذ كل واحد منهما طفلاً.

- لا تجعلي الأمر بهذه البساطة يا مارج. فأنا أعرف أكثر مما تظنين لقد سمعت قصصاً من جدتك. فقد قالت لي إن والدتك بعد وفاة أبيك، أخذتك إلى باريس ولم تسمح لك بالعودة سريعاً.

- جدتي كانت دائماً تبالغ. ولمعلوماتك، لقد تصرفت بشكل رديء خلال الأسابيع التي قضيتها في باريس، أشعر بالخجل كلما تذكرت الأشياء التي قمت بها. لقد أثقلت ضميري بشكل أرغب العودة لأصلح الأمور.

تعرف تماماً، أن من الصعب تصحيح الأمور، في الواقع، إنه أمر مستحيل. فهي يومها لم يعجبها الفرنسيون ولا هم أعجبوا بها، كانت مجرد تلميذة مدرسة في الخامسة عشر تقريباً، خرقاء دون خبرة في العلاقات الاجتماعية، دون ذوق في انتقاء الثياب، بدائية في كل شيء. وفي هذه الظروف كانت غاضبة من أمها، دون منطق، لانها تزوجت ثانية، وقد أدركت الآن أن جدتها هي التي كانت مسؤولة عن هذا الغضب، فهي لم تحب أبداً الفتاة الفرنسية التي أتى بها ابنها إلى انكلترا زوجة له. وقالت لهنري:

- إنه شعور مريع أن تكون على خصام مع لحمك ودمك، أريد فقط أن ازيل كل خلاف وأبدأ من جديد. لذا أرجوك يا هنري، لا تملأ رأسي بالأفكار السيئة. أريد هذه المرة أن أزور أقاربي الفرنسيين، زوج أمي وعائلته، بعقل مفتوح وأفكار إيجابية وودية.

- أليس لهذا علاقة بذلك الفرنسي الوسيم، ابن زوج أمك، الذي أخبرتني والدتي عنه، والذي أتى لزيارتك بعد وفاة جدتك؟

- فرنسوا؟ لا . . بالطبع لا! ولماذا يكون له علاقة؟ على كل، هو لا يعيش في باريس بل في بورغاندي على «الكوت دور».

- حقاً؟.. إذاً هو مزارع عنب؟

- أجل...

- كم هذا رومانسي! لا عجب أن والدتي كانت تصرّ عليك بالعودة سريعاً، خوفاً عليك من الوقوع في حبائل الفرنسيين.

- هذا آخر شيء يمكن أن يحدث، فلن أورط نفسي مع رجل فرنسي. بعدما حصل مع والداي، أعتقد أن الفرنسيين والإنكليز لا يتفقون أبداً.

- إن كنتِ تؤمنين بهذا فأنت مجنونة، وسأصلي لك في غيابك حتى لا يتفق فرنسي وانكليزية، ولأن تعودي سريعاً وإلى الأبد.

ونظر إليها ثم وقف، وعانقها مودعاً وقال «سأشتاق إليك» فقالت بسرعة «لطف منك، ولكنني لم أذكر ابداً أنني سأبقى معهم إلى الأبد، وكم سأبقى هناك يتوقف على مدى انسجامي معهم، وسيستغرق هذا وقتاً، فلا أستطيع توقع شفاء جرح عميق كهذا في غضون أسبوع، ولكن لا أعلم، قد يطردوني!».

- أتمنى هذا، ولكن ليس كما تظنين، حسناً... تصبحين على خير، واكتبي لي..

- طبعاً سأكتب...

وعندما خرج عادت إلى غرفة نومها، واستعدّت للنوم، ثم استلقت في الظلام، وبقي فكرها مشغولاً لفترة طويلة قبل أن تغفو.

الأسابيع القليلة التي امضتها في باريس كانت أيام بائسة، فقد شعرت وكأنها دخيلة تماماً. اللغة كانت مشكلة لها، ولم يهتم آل دوڤال بأن يحاولوا التحدث معها بالإنكليزية، ولم تكن تعرف شيئاً عن الفرنسية. كما أنها كانت تشعر بأنها مختلفة عن باقي الأسرة. فالثياب التي كانت ترتديها كانت غير معقولة، وغير أنيقة، حتى أختها الصغيرة سوزان كانت اكثر ذوقاً بالأزياء منها. أما بالنسبة لفتاتي العائلة الباقيتين

ليليان، وهي في السابعة عشر وماري روز، أصغر من مارغريت قليلاً، فقد كانتا أكثر أناقة بكثير. وكانت ماري روز تسخر منها، بطريقة تؤلمها أكثر لأنها لم تكن تفهم ما يقال. وهكذا كانت تمضي أكثر أيامها وحيدة في غرفتها.

ولم تكن الوالدة تعرف كيف تتعامل مع العدائية بين الفتيات، إضافة إلى أن معظم وقتها كان مخصصاً لسوزان، النحيلة، المصابة دوماً بالعصاب، وفي إحدى المناسبات عندما سخرت منها ماري روز ضربتها بكتاب في يدها وجرحت لها وجهها، ودعتها أمها يومها بالبربرية.

اضافة إلى الفتيات، كان هناك صبيان في عائلة دوڤال، ليون، يعمل مع والده في تجارة العنب ومشتقاته، وله مكاتب في باريس وديجون، وفرنسوا، الذي يقيم في بورغاندي، يتعلم من جده لأمه أصول زراعة وتصنيع الكرمة. أما بالنسبة لمسيو دوڤال نفسه، الرجل الكبير، الأسود الشعر، الأسود العينين، والأكبر من والدة مارغريت باربعة عشر أو خمسة عشر سنة، فقد كانت ترفض أن تتعاطى معه.

ليليان وليون، أصبحا متزوجان الآن، كما قال لها هنري، ولكن ماري روز لم تتزوج بعد، وكانت ماري روز تذكّرها دوماً أنها تعيش في منزل والدها، وأن كل شيء في المنزل ملك لوالدها.

ربما هنري على حق، وأنها مجنونة بالعودة إلى هناك، لتضع رأسها بين فكي الأسد، لو أن الأمر يتعلق فقط بأمها وسوزان، لكان الأمر على ما يرام، ولكن الأمر يتعلق بالعائلة كلها، وكلهم متقاربون، حتى أن أمها أرسلت فرنسوا إليها بعد وفاة جدتها لترى إذا ما كانت بحاجة إلى شيء، ولم تأتي بنفسها، ولكن ربما كان السبب أن صحتها ليست جيدة. كانت قد تلقت رسالة من أمها تعزيها وتدعوها إلى باريس بما أنها الآن وحيدة، ولم تكن متأكدة إذا كانت الدعوة

تعني الإقامة الدائمة هناك معها أم لا. قررت أن تكتب لها لتقول إنها تحب الذهاب إلى باريس ولكن هناك بعض الأعمال تضطرها إلى البقاء في انكلترا.

وكانت على وشك الكتابة، عندما دق جرس الباب، ووجدت نفسها في مواجهة رجل تعرفت عليه فوراً، فرنسوا دوڤال. وخلال ثواني نظرا إلى بعضهما، وبجهد سحبت نظرها عنه، وقد شعرت بالدم يندفع إلى وجنتيها. ورفع حاجبيه وقال بابتسامة باردة:

- أنت مارغريت ماسترز، أليس كذلك؟

- أجل... وأنت فرنسوا دوڤال، ألست كذلك؟ لم أكن أتوقعك، أرجوك ادخل!

- شكراً لك.

ومضت الدقائق التالية بشيء من الضبابية، وهي تستمع إليه يعبر عن شعور الأسف لوفاة جدتها، ويعتذر عن عدم تمثيل عائلة دوڤال في الجنازة. لم تكن قد شاهدت فرنسوا منذ أن كانت في باريس. وأخرجت نفسها من التفكير بتلك الأيام وهو يسألها بهدوء:

- هل وصلتك رسالة والدتك؟

- وصلتني اليوم.. كنت أحاول الإجابة عليها...

- تحاولين؟ وهل الأمر صعب لهذه الدرجة؟

- لا.. ولكن كما ترى... لقد دعتني إلى فرنسا...

- أعلم هذا.. وأعلم أن الفكرة ربما لا تناسبك. ففرنسا ليست من البلدان المفضلة لديك. أتحاولين أن تفكري كيف ستقولين «لا»؟ صراحة، إذا كنت لست راغبة، فلا أرى سبباً لذهابك. فقد فات الأوان بعدة طرق، فلم تعودي طفلة الآن. على كل الأحوال أمك كانت مصممة على هذه الدعوة في هذا الوقت بالذات، وظننت أن من الحكمة معرفة إذا كنت محتاجة إلى شيء... إذا كان هناك شيء

نستطيع أن نفعله من أجلك..

- لا أنا لست بحاجة إلى شيء. وليس هناك شيء يستطيع أي منكم أن يفعله لأجلي.. فلست بحاجة لا للشفقة ولا للمساعدة يا فرنسوا. ما ورثته من والدي يكفيني، وأنا المستفيدة الوحيدة من إرث جدتي. إضافة إلى أن لديّ العديد من الأصدقاء هنا، وأصدقاء مخلصون.

- أنا سعيد لهذا. ولكن احتراماً وتقديراً لمشاعر امك أظن أن عليك زيارتها طالما هي ترغب في هذا، حتى ولو ليومين او ثلاثة.

- وهل تظن هذا حقاً؟ حسناً، لا يعنيني ما تظنه، ولست بحاجة إليك لتعليمي ما هو من الأدب والحق. فقد قررت قبول دعوة أمي، والمشكلة الآن تدبير أمر موعد السفر.

- فهمت، وأظن أنني أستطيع تدبير...

- لا شكراً، فأنا قادرة تماماً على تقرير ما أريد بنفسي، ولدي بعض الأعمال لأنهيها قبل أن أصبح حرة، وسيتوقف سفري على موعد الانتهاء منها، وهذا ما كنت سأشرحه في رسالتي لأمي.

- هكذا إذاً، على كل حال، لا أنصحك بالزيارة الآن، والدتك ستدخل المستشفى لإجراء عملية، لا داعي للقلق، لقد طمأننا الأطباء، ولا داعي لأن تحزمي حقائبك وتسافري مباشرة بعد خروجي. الأفضل أن تنتظري لتخرج وتتعافى، ثم.. تشرفينا بحضورك.

وابتسم لها ابتسامة ساخرة، فقالت بجفاء وصلابة:

- حسن جداً.. سأنتظر.

- سأتصل بك يا مارغريت. وأرجو أن تثقي بي عندما أقول متى ستكون أمك بافضل حال لاستقبالك.

- شكراً لك.. وكيف حال سوزان؟

- شقيقتك بخير، لا زالت في المدرسة. ولكنها تكبر بسرعة. إنها في السادسة عشر الآن، وجميلة جداً، جداً.

ودهشت لوصفه شقيقتها هكذا، في التاسعة من عمرها كانت صغيرة ونحيلة، ودائماً تشكو من الصداع، ودوائر سوداء حول عينيها، وأضافت بجهد:

- والآخرون؟

عندها قال لها إن ليليان وليون قد تزوجا.

- ليون لديه الآن طفلان..

- وأنت يا فرنسوا؟ ألم تتزوج بعد؟

- لا.. ليس بعد.

ومضت عدة أسابيع بعد هذا قبل أن يصلها خبر من فرنسا ثانية. ولم تكن أمها من أرسلت الخبر بل رسالة من فرنسوا شرح لها فيها أن امها بقيت في المستشفى مدة أطول مما توقعوا، واقترح عليها موعداً للزيارة... وهو موعد أسرعت إلى تأكيده.

وها هو يوم الموعد قد حل أخيراً.

لم يكن هناك أحد بانتظارها في مطار اورلي عندما وصلت في وقت متأخر بعد الظهر. كانت تتوقع أن يكون فرنسوا هناك. وبما أنه لم يكن هناك أحد ليستقبلها، سيتوجب عليها تدبير أمرها بنفسها. وحمداً لله أنها كانت قد تعلمت الفرنسية، وخرجت من قسم الجمارك، ونظرت من حولها باحثة عن وجه مألوف ولكن دون جدوى. وأوقفت تاكسي، واتجه بها نحو باريس. وأخذ توترها يزداد، ومحاولتها أن تخفف من توترها بتذكر الأماكن التي تراها من حولها كان دون جدوى. فعندما كانت لا زالت تلميذة مدرسة لم يكن اهتمامها كبير ببباريس. ولكنها أدركت أن لا شيء سوى برج ايفل قد يثير الذكريات عندها، أو يبدو لها مألوفاً.

وشعرت بتوتر أكبر عندما وصلت إلى الضاحية التي يسكن فيها آل دوڤال. اجل.. هذا هو الشارع، السوبر ماركت، الباتسيري، المطعم الصغير، تذكرت كل هذا بألم لم يكن فيه سرور كبير، بل شعور بالندم. وها هي محطة المترو التي بدأت منها ذلك اليوم المجنون، يوم أن هربت.

كان الوقت متأخراً في مساء هذا اليوم من آب، والكثير من سكان باريس قد هجروها لإمضاء نزهات في مكان آخر، ومع ذلك فالشوارع مزدحمة بالناس. وتذكرت الأصوات الفرنسية، واقتناعها المرير بأن الجميع في هذا البلد كان يكرهها... ولكن في الواقع هذا أمر خاطيء! بالطبع لم يكرهها أحد! وتذكرت أيضاً دموع والدتها عندما افترقتا. وكم بكت، ربما دموعها انهمرت ليس فقط لأن ابنتها رفضتها، ولكن لأنها بتحملها مسؤولية عائلة زوجها، فقد ورطت نفسها بمشاكل أكثر مما توقعت. مثل هذه الأفكار لم تكن في ذهن مارغريت منذ سنوات سبع.. فقد كانت تفكر فقط في نفسها، وكانت هي أيضاً قد بكت، وفي الطائرة ايضاً، حتى أنها كانت ضعيفة جداً عندما قابلتها جدتها في مطار هيثرو.

عندما خرجت من التاكسي، ودفعت له، شعرت بالخوف يهاجمها. إنه أمر مختلف تماماً أن تصمم على مصادقة عائلتك، وأمر آخر أن تنفذ الأمر، وخاصة عندما تكون خجلاً من الفتاة التي كانت في الماضي. ولكن على الأقل هذه المرة هي مسلحة بمعرفتها باللغة الفرنسية، مع أنها اكتشفت في وقت لاحق أن هذا السلاح غير قاطع، لأن والدتها كانت تصمم على التحدث بالإنكليزية معها.

عائلة دوڤال، تسكن في الطابق السادس عشر من بناية سكنية، وبعدما أكدت مارغريت هويتها لحارس البناية، حملها المصعد بسرعة إلى فوق. وتذكرت كيف أن المرء يستطيع بسهولة أن يرى من نوافذ

صالون الشقة الأشجار التي تنمو على ضفاف السين، وكيف أن هذه الأشجار ليلاً تغمرها الأضواء لتبدو أكثر خضرة وجمالاً، وكيف أن الماء يبدو خافقاً تحت الاضواء وكأنه قلب باريس. وخرجت مارغريت من المصعد، مندهشة من أفكارها، هل لاحظت مثل هذه الأشياء وهي في الرابعة عشر؟ أم أنها كانت تنظر دون أن ترى، والآن فقط وبعد عودتها، تداخل في ذهنها ما كانت رأته وسمعته؟

وأدخلتها إلى الشقة فتاة لم تعرفها، وقدرت أنها الخادمة، كانت تنتظر أن تستقبلها إما سوزان أو ماري روز،- وبعد قليل دخل زوج أمها لتحيتها، وجهه أسمر، عيناه بنيتان وتمتم لها وهو يصافحها «أهلاً بك!».

ثم اخذ يسألها بالفرنسية عن رحلتها، ولكنها لم تستطع الإجابة، لأنها فجأة أصبحت خائفة، وشعرت بنفسها وكانها عادت إلى الوراء نحو الماضي، وبدلاً من أن تكون فتاة أنيقة، متفهمة، عادت لتكون تلك الفتاة الخرقاء، التلميذة الفظة التي كانتها... المزعجة، الكابوس لكل من عرفها.

ولكنه بدا غير مدرك لكل هذا، واقبلت الخادمة جوليت لتهتم بحقائبها ودخلت مارغريت الصالون واستقبلتها أمها بالقبل المعتادة على كلا الخدين.

- مارغريت، كم تبدين رائعة! أرجوك اجلسي. هل ترغبين ببعض الشاي؟ جان...

كانت تتحدث مع ابنتها بالإنكليزية، وتحولت لتتحدث بالفرنسية مع جان، الذي أسرع يبلغ جولييت أن تحضر الشاي، ثم اختفى تاركاً المرأتين مع بعضهما.

وجلست مارغريت تنظر إلى أمها بقلق. كانت صغيرة الجسم ومليئة بالنشاط، شعرها لا يزال أسوداً، فما زالت في أوائل الأربعين، وجهها

نحيل جداً، وعيناها مظللتان بالسواد، وخلف تصرفاتها الودودة كانت تخفي لمحة من التوتر والقلق. وبدت ضعيفة، وتذكرت مارغريت أن فرنسوا قال إنها بقيت في المستشفى مدة طويلة.

- هل كانت رحلتك جيدة يا مارغريت؟

- أجل جيدة جداً.. شكراً يا أمي...

كانت تشعر بشعور فظيع، بأنها إنما تحادث غريبة. ولكن ماذا تصورت؟ دموع؟ قبل؟ عناق حار؟ لا... لم تتوقع هذا حقاً. ولكن ربما بعض الإشارة إلى أن الماضي قد انتهى، ونسي، وأنهما الآن تستطيعان التوصل إلى التفاهم. ودهشت لأن أمها تحدثت إليها بالانكليزية. مما سيحرمها من فرصة التحادث أكثر بالفرنسية. وبدأت تدرك أنه لن يكون من السهل عليها الحصول على أم حقيقية. وربما سيكون أسهل عليها أن تتوافق مع سوزان، وهذا ما دفعها لتسأل.

- هل سوزان هنا يا أمي؟... والآخرون؟

- لا يا عزيزتي، سوزان في الريف... كذلك ماري روز. وربما عرفت أن ليليان تعيش في نيس؟ وليون وزوجته ذهبا إلى فينيسيا. وأرادت مارغريت أن تسأل عن فرنسوا، ولكنها لم تفعل. وأدخلت جولييت الشاي، ولكن جان لم يظهر. واعتبرت مارغريت أن لا أحد مهتم كفاية بها. وراقبت الطريقة التي كانت أمها ترفع بها إبريق الشاي الأنيق الأبيض والذهبي، لتصب الشاي في الأكواب الصغيرة جداً حتى بدت وكأنها لعب. وأضافت الحليب إلى الشاي، وقدمت لها طبق من البسكوت الطازج.

وقالت أمها بعد قليل:

- آه.. الجميع في الخارج. إنه آب كما تعلمين.. وكنا على وشك إقفال الشقة، فغداً سيأخذني جان إلى سويسرا لإمضاء فترة نقاهة. وهذا من سوء حظي، وأرجو أن تسامحيني يا مارغريت، فلم

نكد نتقابل، ولكن فرنسوا قال إنك متشوقة لرؤيتي، وأنا سعيدة لهذا.

وابتسمت، ولكن مارغريت لم تصدق ما سمعت. غداً ستغادر أمها إلى سويسرا؟ ما هذا الترحيب بابنة كانت تأمل التعويض عن الماضي؟ وشعرت بقلبها يتجمد بالغضب على فرنسوا، الذي دبّر هذا عن قصد. لم يكن موافقاً أبداً على مجيئها.. فقد قال إن الوقت قد فات على كل الأحوال. وسمعت نفسها تقول بهدوء:

- أفهم هذا.. لو كنت أعلم أنك مسافرة، كنت أتيت في وقت أبكر من هذا، وأنا آسفة لأنك لا زلت بصحة سيئة.

- أرجوك لا تقلقي. سيصل فرنسوا الليلة. ويجب أن تبحثي معه ماذا ستفعلين.. سيعتني بك.. فنجان شاي آخر يا عزيزتي؟

وهزت مارغريت رأسها رافضة، وهي تشعر باليأس والغضب، كم كان هنري على حق! لقد دفعت دفعاً للحضور. ولا أحد، حتى أمها، كان يريدها أن تحضر هنا. إنها مجرد ضيف وصل في وقت غير مناسب. وبالنسبة لاعتناء فرنسوا بها، فقد استعدت لتفتح فمها لترفض، وتشكرها على ذلك، ولكنها ترددت. فقد بدت أمها مريضة حقاً، وبدلاً عن ذلك قالت:

- أنا واثقة أنه سيعتني بي يا أمي. ولا لزوم لتقلقي، سنتدبر الأمر بيننا، أرجوك لا تفكري بالأمر. يجب أن تفكري فقط باستعادة عافيتك. يجب عليك أن ترتاحي الآن.. سآخذ الصينية إلى المطبخ.

- لا.. لا.. جوليت ستأخذها. ولكن إذا عذرتيني سأذهب إلى غرفتي. فأنا أشعر بالتعب، وغداً عليّ أن أسافر. أنا سعيدة لأنني استقبلتك ولأن أعرف أنك راضية بأن تكوني تحت رعاية فرنسوا. وآمل أن نرى بعضنا قبل نهاية السنة.

- أتمنى هذا.

بعد أن غادرت أمها الغرفة، اخذت تفكر بما قالته عن عناية فرنسوا بها. واعتقدت أنها تعرف ماذا يعني هذا. يعني أنها حققت رغبتها في رؤية أمها، وتستطيع الآن العودة من حيث أتت. ولن يتردد في أن يقول لها هذا. ولكنه لن يحصل على ما يريد، لن يجبرها على فرض إرادته عليها. بالتأكيد. لأنها ستصرّ على رؤية سوزان قبل أن تعود، حتى ولو أنها خائفة أن الريف، حيث سوزان، يعني «هوشيه ليزانج» حيث يمتلك فرنسوا كرومه. فكرة دعوة نفسها إلى هناك، فكرة لن يقبل بها فرنسوا، ولكنه سيضطر إلى القبول. وكل هذا جيد نظرياً، ولكنها ليست واثقة فعلاً إنها ستستطيع إقناعه بأخذها إلى هناك.

لم تنتظر تلك الليلة لترى متى وصل فرنسوا. كانت أمها قد آوت الى فراشها باكراً. وبدلاً من الجلوس مع زوج أمها في الصالون، ادّعت التعب وذهبت إلى غرفتها، ولم تكن تلك الغرفة نفسها التي كانت تنام فيها في الماضي، بل كانت غرفة ليليان، وليس فيها ذكريات. السجاد فيها ناعم وسميك. والنوافذ تطل على ساحة البناية.

باريس.. باريس الرومانسية! وكل آمالها في بداية جديدة لحياتها ابتعدت الآن بعدها عن النجوم.. وغداً عندما تستفيق سيكون فرنسوا هنا...

وكان هناك.. يحضر الإفطار، قهوة، كرواسان، في غرفة الطعام حيث انضمت إليه. لم تكن جائعة، فقد كانت متوترة الأعصاب ولم تشعر بالجوع، ولكنها جلست إلى الطاولة، وأكلت قطعة «كرواسان» وشربت بعض القهوة مع الحليب. وهي تتوقع أن يعلق على عدم تناولها الطعام.

- إذاً لقد حضرتي.. كنت أتساءل فيما إذا كنت ستفعلين. من سوء

الحظ ان أمنا مسافرة اليوم.

- حقاً..؟ ولكنك كنت تعلم، أليس كذلك؟ وأنت من دبرت أمر قدومي في هذا الوقت.

- كان هذا منذ أسبوع، والأحداث تغيرت. والدتك لم تكن صحتها على ما يرام. فشفاؤها يحتاج إلى وقت، ولم أقرر أنا أن تذهب إلى سويسرا لقد أمرها الأخصائي بهذا، والواقع إنها ليست في حالة تسمح لها بالقيام بالأعباء العائلية بعد.

- الأعباء العائلية؟ أنا..! وأخذت مارغريت تفكر، غير واثقة كثيراً من أنها فهمت ما قاله. ولم يتطرق إلى موضوع ماذا ستفعل، وكذلك لم تذكره، وبعد الإفطار، ساعد فرنسوا والدته بالتحضير لسفرهما وتركوا مارغريت لوحدها. وشعرت بأن الأمر كثير لتتحمله.

بالنسبة لها ما تبقى من الصباح كان تشابكاً من الأصوات الفرنسية. من الدخول والخروج من الشقة، وأخيراً ودعتها أمها «سأتركك لفرنسوا يا عزيزتي» وفجأة أصبحت لوحدها في الشقة مع ابن زوج امها.

☆ ☆ ☆

٢ - هو من يقرر!

دخلت مارغريت غرفتها لتعيد حزم حقائبها، مع انها لم تخرج كل ثيابها أصلاً. فهي لم تكن تتصور أن بإمكانها البقاء، لأن جولييت التي كانت تقوم بعمل البيت قد غادرت الآن، وتبدو الشقة وكأنها لم تكن مسكونة، فالستائر مغلقة، والغرف فارغة بشكل غريب.

لقد كانت تشك في أن فرنسوا سيطلب منها العودة إلى انكلترا عندما تصبح وحيدة معه. وسألت نفسها، لماذا يجب أن تعود؟ لقد مرت بمتاعب كثيرة كي تأتي إلى هنا، ناوية أن تعيد وصل ما انقطع بينها وبين عائلتها. وتكلّفت كذلك بعض المصاريف، فقد اشترت لنفسها كمية لا يستهان بها من الثياب، ومع أن أمها سافرت، فسيبقى لها سوزان، واللعنة على فرنسوا دوڤال، سترى شقيقتها حتى ولو ذهبت إلى «هوشيه ليزانج»، ولن يكون فرنسوا من الفظاظة بحيث يرفض أن يأخذها إلى هناك.

ولكن ألن يفعل؟ وسمعت نفسها تضحك بسخرية. إنها تخدع نفسها إذا حاولت تصديق هذا، فهي تعلم رأي فرنسوا بها: مسببة المشاكل.

وسمعت دقاً عنيفاً على الباب.

- هل أنت هنا يا مارغريت؟

- أجل.. وأين سأكون؟

وفتح الباب ودخل، وقال وهو ينظر إليها ساخراً.

- لقد ظننت أنك هربت لتتنزهي في المترو.

وقبل أن تجمع أفكارها الغاضبة لتحتج على إشارته غير المنصفة إلى شيء حدث في الماضي، تابع قوله:

- سنخرج معاً لتتناول الغداء. هناك مطعم صغير عند الزاوية. كم يلزمك لتكوني مستعدة؟

- خمس دقائق.

وغيرت ملابسها بسرعة، ووقفت وسط الغرفة، ونظرت إلى نفسها في المرآة معجبة بمنظر الفستان البسيط الأخضر الذي ترتديه، والذي يبرز استدارة جسدها. ولم يكن فيها أي شيء من الإثارة والغموض اللذان يميزان المرأة الفرنسية.

بعد أكثر من عشر دقائق خرجت من الغرفة لتجد فرنسوا في الصالون، يقف عند النافذة وظهره للضوء، وقالت له بأدب:

- أخشى أن أكون تأخرت عليك أكثر مما توقعت.

- لا تعتذري، لقد توقعت هذا، وليس منك فقط، بل من أية امرأة تهتم بمظهرها.

وتجولت نظراته بها من رأسها إلى أخمص قدميها، ولكن لم يعلّق، مع أنها توقعت منه أن يعلّق مغازلاً.

- هيا بنا إذاً..

وسارت أمامه خارجة من الشقة، ولم يتكلما وهما في المصعد،

حتى أنه لم يمسك بذراعها وهما يقطعان الشارع المشمس نحو المطعم. وطلب فرنسوا نوعاً من الأسماك، وسلطة وبعض الشراب.

- هذا يكفي كما أظن، لن يكون هذا سوى وجبة عادية، فنحن لا نحتفل بشيء أليس كذلك؟

ونظر اليها دون اهتمام. وبطريقة ما أثرت غطرسته الفرنسية الأنيقة على أعصابها. وأحست بضعف في ساقيها حتى أنها كانت مسرورة لأنها جالسة. وأحست فجأة أنها لن تربح لو جرى بينهما أية مواجهة حول ما فعله معها.

وتذكرت كيف أنها فعلت بالضبط ما قاله لها، وكرهت نفسها. ومدت يدها تتناول كاس الشراب واحتست منه قليلاً. وقال لها:

- وهكذا ها نحن وحيدان. وترك لي أن أخطط لتحركاتك.

- صحيح؟.. لقد فهمت أنك ستعتني بي.

- تقريباً.. ولكن لدي أفكار خاصة لما يجب أن أعمل. وما قد ترغبين به قد لا يكون من أولويات ما أنويه.

- ولكن ما تريدني أن أفعل له الأولوية.

- طبعاً..

ووصل الساقي ومعه طلباتهما، وعدما أصبحا لوحدهما ثانية، دفع السلطة إليها، وأخذ الشوكة والسكين وتابع حديثه:

- أعلم تماماً أنك تربيت على كره بلدي وأبناء بلدي. وأعتقد أنك راضية بأنك قمت بواجبك، وأتيت في هذه الزيارة.

- وكيف تجرؤ على هذا الاعتقاد، لقد خدعتني.. لقد دبّرت الأمر كله. إنها ليست غلطتي أنني لم أستطع سوى تحية أمي وتوديعها فقط، فكيف أكون راضية إذن بهذا بعد أن قطعت كل هذه المسافة؟

- اهدأي ولا تبدأي بلومي. لقد شرحت لك ما حدث، وأضيف عليه أن أمك لم ترغب في أن ترفض زيارتك. وهي تعلم كم أنت

حساسة. ولم ترغب في جرح إحساسك، والآن دورك لتقومي بأشياء جيدة، الأشياء الصحيحة. وهذا بالضبط ما أريدك أن تفعليه.

- نعم؟ وما هو الشيء الصحيح في رأيك؟

- ستأتين معي إلى «هوشيه ليزانج» وتقومين بمجهود لتكوني لطيفة مع عائلة أمك. الخالة انيتا هناك، وشقيقتك أيضاً، وماري روز وليون وزوجته هنرييت وطفلاه، وأنا بالطبع.

- ماذا؟

وحدّقت به ببلاهة، لمجرد التفكير بأنه يريدها أن تفعل تماماً ما خطط لأن تفعله! وكادت إن تضحك لولا أنها شعرت بالغضب لأنه قام بالخطوة قبلها، وتصوّر بأنه يعلّمها بعض الأخلاق!

- ألم أوضح ما أقول؟

- لقد أوضحته تماماً. ولكنني أكره أن يُقال لي ماذا عليّ أن أفعل. وكأنني لا تفكير سليم عندي.

- من السهل إقناع النفس بأن الإنسان يفعل ما هو صائب. لقد أردت فقط أن أتأكد من تخليك عن أية فكرة بالهرب عائدة إلى انكلترا، ونسيان كل شيء عن عائلة دوڤال مرة أخرى.

- أنا واثقة أنني لا أستطيع نسيانك، ولكن دعني أؤكد لك أن ليس الفرنسيون وحدهم من يعرف الأصول، ولمعلوماتك، ليس لديّ أية نية بالهرب عائدة الى انكلترا، مهما كنت تقصد من هذا الكلام.

- أوه هيا.. أنسيتي أنني جلست مع والدة خطيبك! وأعلم أن لديك أسباباً للعودة سريعاً.

- حسناً، مهما يكن ما تعرفه، أو تظن أنك تعرفه، فليس عندي النية أن أعود إلى انكلترا بعد. فأنا أريد رؤية شقيقتي، وأنا أرّحب بفرصتي لإثبات، على الأقل لبعض عائلة دوڤال الذين يظنون أنني انكليزية... ومع أنني تصرفت بشكل سيء عندما كنت في الرابعة

عشر، فلست وحشاً، وأستطيع أن أرى أنك لا تريد الاقتناع. لذا لن أحاول أن أؤثر عليك، ومؤسف أن تكون واحداً من العائلة، لأنني سأجد صعوبة في أن أعجب بك.

وتطلعا ببعضهما عبر الطاولة، ولم يرف لمارغريت جفن ولا أشاحت بنظرها عنه. ثم لوى بشفتيه وقال:

- لسوء الحظ، الشعور متبادل.

وأكملا طعامهما بصمت. وتمنت مارغريت من كل قلبها أن لا تكون الخالة انيتا صعبة التعامل أو أنها قد حكمت عليها سلفاً لما حدث منذ سنوات، وأن تكون ماري روز متقبلة لها بشكل معقول. ولا يستطيع أحد القول إنها قد ترحب بها. جزء منها كان يتوق إلى ترك الطاولة والمغادرة الآن، حتى لا ترى فرنسوا دوڤال. وعائلته ثانية. ولكن من ناحية أخرى، السبب الوحيد الذي دفعها للمجيء إلى فرنسا هو التعويض عن أخطاء الماضي، ولتكتشف إذا كانت لا تحب هؤلاء الفرنسيين كما كانت جدتها تماماً.

وقاطع فرنسوا أفكارها قائلاً: «هل نذهب؟» ودون أن تجيب وقفت وتحركت نحو الباب.

كانت الرحلة إلى «هوشيه ليزانج» ممتعة على الرغم من التوتر بينها وبين فرنسوا. لم تكن قد شاهدت الريف الفرنسي من قبل، وأدهشها اتساع الأراضي، تماماً كما ادهشتها الحركة الناشطة في العديد من البلدان الصغيرة والقرى التي مرا بها. ووجدت بورغاندي بلد زراعة الكرمة ساحرة تماماً. لم تكن قد شاهدت زراعة الكرمة من قبل ووجدتها كثيرة الخضرة رائعة المنظر ممتدة على مدى واسع من الأراضي، عبر الأودية العريضة وعلى سفوح التلال المتوجة بالغابات. وكانت ترغب في إلقاء الكثير من الأسئلة إلا أنها كانت لا تزال كارهة للتحدث مع فرنسوا، فقد جرح مشاعرها، وشعرت بأنه حكم عليه

مسبقاً، لذا بقيت صامتة، تجيل نظرها بما حولها من الخضرة الطبيعية.

وأخيراً، تركا الطريق الدولية، إلى طريق ريفي أصغر حيث إشارة الطريق تدل إلى وجهة «ارميت» وقال فرنسوا شارحاً:

- ارميت هي أقرب بلدة لنا. والخالة انيتا تقوم بالكثير من التسوق هناك. مما يذكرني... ولكن هل أنت مصغية أم تفضلين أن تتجاهليني؟

- أنا مصغية لك.

- كنت أقول، لملء أوقات فراغك في «هوشيه»، قد تكون فكرة جيدة لو أنك وسوزان علّمتما بعضكما شيئاً من لغة الآخر، سوزان تعلمت الانكليزية في المدرسة ولكنها كسولة وتعمل على تعلّمها، وبالنسبة لك ستجدين الحياة في فرنسا أسهل لو حاولتي فهم اللغة. هل كانت الفرنسية أحد المواضيع التى درستيها في المدرسة؟

- أجل..

- حسن جداً، هذه بداية، وأرجو أن لا تكوني نسيتيها منذ تركك المدرسة.

- لا..

وبدا لها غريباً أن يصر على التحدث بالإنكليزية بدل امتحان مدى معرفتها بالفرنسية، ولكنها اعتقدت أن الأمر راجع إما للأدب أو لتفضيله هذه اللغة.

- وقد تجدين أيضاً الوقت لمساعدة الخالة انيتا برعاية الأطفال، لقد أصبحت كبيرة في السن وهنرييت لن تترك الأولاد معها أبداً إذا لم يكن هناك من يساعدها.

- ولكن سوزان وماري روز هناك، أليستا كذلك؟ وكيف لها أن تعتمد عليّ؟ ولكنني بالطبع سأساعدها.

بعدما عبرا ارميت، أصبحا داخل الريف، وسارا في طريق ضيق يمر عبر بعض التلال. وإضافة الى مزارع الكرمة كان هناك حقول محروثة ومراعي وبعض نبتات الخشخاش ذات اللون الأحمر اللامع، على جانبي الطريق، ثم، وبعد منعطف قوي، وجدا وادياً عريضاً ممتداً أمامهما، وفي نهايته البعيدة، ما بين أشجار الكرمة، بدت قرية ببيوتها ذات السقوف الرمادية. والبرج المستدير لكنيسة القرية.

- هذه هي «هوشيه».

- هوشيه ليزانج؟ لماذا دعيت بهذا الاسم يا فرنسوا؟

- الاسم مأخوذ من أكبر مزارع الكرمة في المنطقة «كلوديزانج».

- وهل هي لك؟

- لا.. ليست لي «فكلو ديزانج» قسمت الآن إلى عدة أقسام ولها الكثير من الملاّك. «لي فلورانس» اسم ممتلكاتي، وهي أصغر بكثير. ولكن مركزها ممتاز عند السفوح، لزراعة الكرمة الجيدة.

وقررت مارغريت، وهما يسيران في الطريق المنبسط عبر الوادي، والأشعة الذهبية وهي على وشك المغيب تعطي ظلالاً على التلال، وتزيد أشجار الكرمة اخضراراً، أن هذا المكان أحد أجمل الأماكن التي شاهدتها في حياتها والأكثر رومانسية. وعلى مشارف القرية، مرا ببيت كبير عتيق، بيت صاحب الأملاك، والكرمة تمتد من خلفه بمنظرها المؤثر، الذي يعطي انطباعاً أنها هناك منذ قرون طويلة.

- هل هذه هي حمى «كلو ديزانج»؟

- لا.. إنها أملاك مدام هوبرت بنوا.

القرية كانت صغيرة والشوارع ضيقة، وعندما غادرا ساحة القرية المحتوية على كاراج، وفندق صغير، ومحال صغيرة مع طاولات في الخارج. وجدرانها الحجرية وأبوابها الحديدية، ومن خلف هذه الجدران استطاعت أن تلاحظ بيوتاً كبيرة أحياناً، وأحياناً بيوتاً صغيرة.

وعند طرف القرية البعيدة دخل فرنسوا عبر بوابة ضخمة أدت بهما الى باحة مليئة بالزهور، يحجبها عن الطريق جدار مرتفع من أحد الجوانب وكاراجات حجرية منخفضة من الجانب الآخر. وشعرت مارغريت شعوراً فارغاً بخيبة الأمل. فقد توقعت أن يكون منزله وسط كروم العنب مثل المنزل الذي مرا به. ومع ذلك فقد كان منزلاً مهيباً، من طابقين له سقف من القرميد المصقول بطراز بورغاندي تقليدي. الجدران الحجرية فيه كانت بلون دافىء، مصاريع النوافذ الخارجية بالأزرق الرمادي. يفصل ما بين الباحة والتراس المرصوف بالعشب حاجز حديدي، حيث هناك مساكب من الزهور تلتمع بالورد والبيتونيا والجيرانيوم الأحمر. وهناك بعض الأثاث المستخدم خارج المنزل منتشر في الظل. ومن فوقها تمتد أغصان شجرة كستناء كبيرة الأوراق عالية في السماء وقد لوّنتها ألوان المساء المشمشية.

بدا كل شيء مرحباً. ولكن لم يخرج أحد لاستقبالهما، ووقفت مارغريت قرب السيارة، وفرنسوا يفرغ الحقائب منها، وسألت بعصبية:

- ألسنا.. اليس وصولي متوقعاً؟

- أجل.. وصولك متوقع، لقد أبديت نيتي في أن آتي بك معي.. ولست معتاداً على مفاجأة الخالة انيتا بالضيوف. لقد كانت مديرة منزلي منذ زمن بعيد ومن قبلي لجدي. وهي تستحق بعض الاعتبار. وأشار ناحية المنزل وقال:

- تفضلي.. اتسمحين؟ وانسي أمر الحقائب.. سأهتم بها.

ودفع فرنسوا الباب الذي ينمو إلى جانبه غرسة عنب بأوراقها الخضراء، وخصلات العنب الصغيرة، ودخلا إلى ردهة مربعة تؤدي إلى عدة غرف.

- لا بد أن الخالة انيتا تهتم بالأطفال.

وفي تلك اللحظة جاء صوت جميل عالي النبرات يقول بشوق بالفرنسية:

- أهذا أنت يا فرنسوا؟

وخرجت فتاة شابة من إحدى الغرف.

وحدّقت بها مارغريت، بذهول، وانتبهت فقط عندما قال لها فرنسوا إن هذه سوزان. في غير هذا الظرف لم تكن قادرة على التعرف إلى شقيقتها الصغرى بجمالها الأخاذ هذا، صغيرة الجسم. بشرتها بلون القرنفل الزهري، عيناها سوداوان راقصتان، وضفيرتين قصيرتين بلون الذرة تتماوج أطرافهما فوق كتفيها، اللذان تكشف عنهما ياقة فستان أزرق فاتح.

- مرحبا مارغريت!

وتلقت مارغريت قبلة سريعة على كلا خديها، ويبدو أن سوزان كان لديها أشياء أخرى في ذهنها عدا وصول شقيقتها الإنكليزية، لأنها استدارت فوراً لتقول لفرنسوا بالفرنسية:

- أنا أحضرّ الحلويات يا فرنسوا، لقد أعطتني ڤيوليت الوصفة. ستكون حلوى لذيذة لك. يجب أن تدخل المطبخ لترى.

- انسي الحلوى الآن. وخذي مارغريت إلى غرفتها التي حُضّرت لها فوق. ومن الأفضل أن تبدأي منذ الآن بالتمرن على الإنكليزية. أين ماري روز؟

- لقد ذهبت لزيارة لويز. والخالة انيتا أخذت الأطفال في نزهة. ولكنني كنت أرغب في أن أكون هنا عندما تحضر.

واستدارت إلى مارغريت.

- تعالي! سآخذك إلى غرفتك.

وأرسلت إلى فرنسوا ابتسامة سريعة، وأسرعت تصعد الدرج، ولحقت بها مارغريت على مهل، وقد شعرت بالحبور. ولحقت

بسوزان عند نهاية الدرج العريضة المفروشة بمقاعد جميلة، وأريكة صغيرة، وطاولة عليها بعض الكتب. وأشارت سوزان إلى الكتب وقالت بالفرنسية:

- ماري روز كانت تدرس الإنكليزية. هل تفهمين ما أقول؟

وأجابتها مارغريت بالفرنسية أيضاً «أفهمك تماماً!» وبدت لها إشارة جيدة أن تكون ماري روز تحاول تحسين لغتها الإنكليزية، وتمنت أن يكون هذا إكراماً لها. وإذا كان الأمر كذلك، فسيبدو من الممكن أن تكون ماري روز أيضاً تريد أن تعوض عما حدث بينهما في الماضي.

- إذاً أنت تتكلمين الفرنسية، لقد قال فرنسوا إنك لا تتكلمينها.

- حسناً أنا أتكلمها ولكن ليس جيداً.

ودفعت سوزان أحد الأبواب، ووقفت جانباً لتدخل مارغريت الى غرفة الضيوف، كانت غرفة صغيرة مزينة كلها تقريباً باللون الأزرق. وسجادة بلون العاج على الارضية الخشبية اللماعة. السقف كان بلون أزرق أفتح والجدران بيضاء. وتطل النافذة على شارع ضيق كانا قد دخلا عبره إلى القرية، وجلست سوزان على السرير المنخفض، ولاحظت مارغريت أنه مجهز بإحدى الوسائد الكبيرة المربعة، وجدتها غريبة وغير مقبولة عند زيارتها السابقة. ولكن الأمر لن يقلقها الآن. في الواقع كل شيء مختلف قد تجده مثيراً للاهتمام. واقتربت نحو النافذة ونظرت إلى الخارج. وكانت التلال ترتفع وراء المنازل التي في الشارع مغطاة بالكرمة ولونها الأخضر في الضوء بدأ يتلاشى.

- فرنسا لا تشبه إنكلترا أبداً... هل تذكرين إنكلترا يا سوزان؟

- لا.. أبداً.

- وهل تحبين أن تعودي إلى هناك؟

- ولماذا أعود؟ هذه بلدي.

- أجل.. هذا أمر غريب، أليس كذلك؟ أنت فرنسية وأنا انكليزية، ومع ذلك فنحن شقيقتان.

- أنا لم أعتد على هذا، هل تنوين البقاء طويلاً يا مارغريت؟

- أود البقاء هنا إلى أن تعود أمي من سويسرا، لقد شاهدتها لفترة قصيرة الليلة الماضية. لم تكن لديّ فكرة أنها مريضة هكذا.

- لا أعتقد أن الأمر يهمك لهذه الدرجة. فأنت لست جزءاً من العائلة. لم تأتي أبداً لتقيمي معنا، وأنا أعلم أن أمي كانت تدعوك لقضاء العطل معنا.

- لقد كانت جدتي تظن أن هذا مزعج لي وأنا لا أزال في المدرسة، وبعد أن تركت المدرسة لم تكن صحتها جيدة، وكانت بحاجة إليّ. ولكنني بالطبع احب رؤية أمي.. وأنت وهي جزء من عائلتي.

- أبي كان الجزء الخاص بك من العائلة.. الجزء الإنكليزي. فأنت إنكليزية كما يقول فرنسوا، وأنا فرنسية، أما أنا فلا أحب الإنكليز.

وأجفلت مارغريت، فصراحة سوزان كانت فظة. ولكنها أخذت تفكر، ففي عمر سوزان، كان من الممكن أن تفعل هي نفس الشيء. الأمر الواقع أن كلاهما تربتا على أحكام مسبقة. هي أثرت عليها جدتها، فمن يا ترى أثر على سوزان؟ هل عائلة دوفال بشكل عام؟ وحاولت أن تكون منصفة وأن لا تضع اللوم كله على فرنسوا، مع أنها في قرارة قلبها كانت تعرف تماماً أنه هو السبب. وقالت محاولة تغيير الموضوع:

- أظن من الأفضل أن أنزل وأحضر حقائبي، وأظن أن الخالة أنيتا قد عادت. أليس هذا صوت طفل؟

- أجل إنها انطوانيت، إنها في الثالثة الآن ولا تستقر أبداً. يعم

الهدوء عندما يكونون في الخارج. وبما أنك الآن هنا ستأخذين دورك برعاية أطفال هنريت، هكذا قال فرنسوا.

ونظرت إليها مارغريت بتوتر، ليس لانها لم تكن راغبة في أخذ دورها في رعاية الأطفال، بل لأن سوزان للمرة الثالثة استشهدت بكلام فرنسوا. ولم تظهر سوزان اي دليل على أنها ستغادر طرف السرير، وعندما وصلت مارغريت إلى الباب سألتها:

- ألن تأتي معي إلى تحت لتقديمي للخالة انيتا؟

- لقد قال فرنسوا أن لا نعاملك كضيفة.. تستطيعين تقديم نفسك.. إنك شقيقتي وهي تعرف كل شيء عنك. لو نزلت الآن سأضطر إلى تحضير رضاعة جاك، أو فعل شيء مضجر مماثل.

- أعدك أن أساعدك.. إذا قلت لي ماذا أفعل؟

- أوه.. حسن جداً. وأريد أن ألقي نظرة على الحلوى التي أحضرها. أشعر بالتسلية لصنع مثل هذه الأشياء، ولكن فرنسوا يقول إن النتيجة دائماً تكون كارثة.

- هل يقول هذا؟ ومن هي فيوليت التي أعطتك الوصفة.

- إنها تأتي كل يوم لمساعدة الخالة انيتا في عمل المنزل. انها تعيش في مزرعة وراء القرية. سآخذك إلى هناك يوماً ما.

- سأحب هذا.

وابتسمت، لقد كان لديها شعور ما أن سوزان ترغب في أن تكون ودودة معها. فهي لا تذكر الكثير من زيارة شقيقتها السابقة لأنها في ذلك الوقت كانت صحتها سيئة وتتطلب العناية الدائمة من أمها. كم تغيرت! إنها الان مليئة بالصحة والثقة بالنفس.

عندما بلغتا الطابق الأرضي وجدتا الخالة انيتا مع الطفلين، كانت امرأة مسنة نحيلة ترتدي الأسود. شعرها يميل الى السواد، ووجهها مليء بالمستحضرات، وتنهدت وهي ترفع جاك من العربة بينما كانت

انطوانيت تحتضن لعبة تحت ذراعها، وهي تكرر بأنها جائعة.

وقدمتهما سوزان لبعضهما دون اكتراث، وبينما كن يتجهن نحو المطبخ، لاحظت مارغريت أن خالة فرنسوا تحتاج فعلاً إلى المساعدة. إذ يحتاج الطفلين إلى الإطعام، والإيواء في الفراش ثم تحضير العشاء لباقي من في المنزل. كما اكتشفت أن الخالة انيتا منظمة تماماً، إضافة إلى إنها طباخة ماهرة، وتقوم بعمل كثير بالنسبة لعمرها.

- حضّري زجاجة رضاعة جاك أرجوك يا سوزان.

ونظرت إليها سوزان وقالت لشقيقتها:

- تعالي يا مارغريت، وسأريك ماذا يجب أن تفعلي.

ونظرت الخالة إلى مارغريت نظرة حادة.

- هل تتكلمين الفرنسية يا مارغريت؟

- أجل.. ولكن ليس جيداً. أفهم عليك إذا لم تتكلمي بسرعة.

- جيد، لن يكون هناك إذاً أي سوء تفاهم، هل ترغبين في حمل جاك بينما أتعامل مع أنطوانيت، سيكون خجولاً منك في البداية، ومزعج قليلاً.

وحملت مارغريت الطفل بين ذراعيها وأخذت تراقب سوزان تحضّر الرضاعة، ودخل فرنسوا إلى الغرفة وبرفقته فتاة سوداء الشعر والعينين، أنيقة جداً تبدو فرنسية دون شك.

وظنت مارغريت أنها صديقته ثم أدركت أنها ماري روز، الفتاة التي ساعدت في جعل حياتها تعسة منذ سنوات مضت والتي كرهتها كثيراً.

وتطلب منها مجهوداً كي تجيب على تساؤل فرنسوا:

- أجل.. بالطبع أتذكر ماري روز.

واستدارت إليها وابتسمت، وابتسمت ماري روز بدورها.

وحيّت مارغريت الفتاة باللغة الفرنسية متعمدّة. ولاحظت برضى

كيف أن عيني الفتاة اتسعتا بالدهشة للهجتها الخالية من العيوب التي بذلت الكثير من الجهد لاتقانها.

ولاحظت نظرة فرنسوا لها، متفحصة وبقليل من العدائية. وتساءلت ماذا فعلت يا ترى؟ وعرفت ماذا فعلت بعد أن أخذت الطفل جاك الى الغرفة الأخرى لإطعامه حسب طلب الخالة انيتا. كانت غرفة جلوس عائلية تقريباً، كبيرة ومريحة، ومع أنها قد أعيد فرشها من جديد إلا أنها تزال محافظة على طرازها القديم.

واختارت مارغريت مقعداً مريحاً وبدأت تطعم جاك. وبعد قليل دخل فرنسوا ووقف ينظر إليها.

- إذاً أنت تتكلمين الفرنسية هذه الأيام أليس كذلك يا مارغريت؟ ما هي الفكرة وراء خداعي؟

- أنا لم أخدعك، ولكنك اعتقدت أنني لا أتكلم الفرنسية. كما تعتقد تماماً أنني لا زلت تلك الفتاة عينها التي أتت إلى فرنسا منذ سبع سنوات.

- لا هذا غير صحيح، فأنا مدرك تماماً لعدد من التغييرات بك، فأنت فتاة جميلة الآن، وأصبحت نحيلة، وتعرفين كيف تختارين ثيابك. لقد شككت بالأمر في انكلترا ولكنني أرى هذا بوضوح الآن، وتعلمتي التحرك برشاقة. ومن معرفتي بك أقول إن هذا بوادر هدنة بيننا.

- ومن معرفتي بك، أستطيع التخمين أنك مستعد لإطلاق بضع طلقات أمام أذني لمجرد تذكيري بأنني لا زلت في معسكر الأعداء. لقد سمعت ازيز رصاصة لتوي تمر قرب أذني.

- صحيح؟ ولكنك عبرّت عن نفسك جيداً بالفرنسية.

- طبعاً ولكن «كفتاة إنكليزية» كما قلت.

- حسناً.. لم أقصد شيئاً بهذه الملاحظة، ولكن إذا أحببت أن

يكون الأمر هكذا، فأجل، لقد عبرت عن نفسك جيداً بالنسبة لفتاة تتكلم لغة غريبة... على كل لا أظن أن طلقاتي قد أرعبتك، أليس كذلك؟

- لا لم تخيفني.

ونظرت إليه مباشرة، بعينان واسعتان، فضحك قليلاً وقال:

- عندما تنظرين إليّ هكذا يا مارغريت، توشكين أن تقنعيني برمي كل سلاحي!

ولكنني قابلت الكثير من الفتيات ذوات العيون الجريئة، وتعلمت منذ زمن أن لا أصدقهن. وفرّي لغة عيونك لخطيبك الإنكليزي. وتأكدي أنني سألزم حذري، وأستخدم أسلحتي إذا كان الأمر ضرورياً.

- وهل هذا تهديد؟ ولكنني لا أعرف لماذا. هل تخطط لأن تجعل حياتي تعيسة لسبب ما؟

- هذا يتوقف على كيفية تصرفك. وكوني واثقة من شيء واحد، لن أغادري هنا قبل أن أسمح لك، خطيب أو لا خطيب. وأنت تعرفين لماذا. فعندما سأكتب إلى والدتنا في سويسرا، أريد أن أكون قادراً على القول إنك بين أسرتك وإن الروابط العائلية ثابتة، وعندها سيكون بال أمك مرتاحاً.

وأحست مارغريت بالامتعاض. لقد كان وكأنه يقول لها إنه لا يصدق أن لديها النية أن تتفاهم مع أقاربها الفرنسيين. فقالت له بجفاء:

- سأفرر ما أظنه الأفضل حول البقاء هنا. ولا تزعج نفسك بالقول إنني لا أحسن التصرف بتحدثي مع مضيفي بهذه اللهجة، وتذكّر أنك أنت من اخترت معاملتي وكأنني أسير من الأعداء.

- أنت تريدين تحويل الأمر إلى مأساة. أليس كذلك؟

ـ ولكنك فعلت هذا.

وحدّقا ببعضهما لبرهة بتحدي، ثم استدار وخرج.

وأخرجت مارغريت الرضّاعة من فم جاك بلطف وحملته إلى صدرها وأخذت تربّت ظهره ليتجشأ. كان ذهنها مشغولاً بالحديث الذي انتهى لتوه، وشعرت بالاضطراب. من بدأ بالعدوانية الآن؟ وفكرت بأنه فرنسوا، ولكنها شعرت بأنها كانت متحفزة زيادة عن اللزوم للدفاع عن نفسها، إضافة إلى الهجوم. من المؤسف أنه لم يستطع نسيان الماضي ومحاولة الثقة بنواياها الطيبة، واعتقدت بأن كونها انكليزية هو أساس كل هذا. على كلٍ، يستطيع أن يظن ما يريد، فهي غير مهتمة...

في المطبخ كانت الصغيرة انطوانيت تتناول عشاءها على مضض على طاولة صغيرة. وقالت الخالة انيتا لمارغريت:

ـ إنها تأكل مع والديها في منزلهما في ديجون. ولكن الأمور هنا تجري حسب رغبتي يا انطوانيت. عشاؤنا سيتأخر، وستكونين تعبة حتى ذلك الوقت لتتمتعي بوجبة جيدة. وها أنت تتثائبين.. أين سوزان؟ يجب أن تغيّر للصغير وتضعه في الفراش، لا أن تترك كل شيء لك منذ أول يوم لك معنا. ماري روز ستعتني بانطوانيت، وقد ذهبت إلى الحديقة لتحضر لي قليلاً من البقدونس، سأحضر العجة هذه الليلة.

وتملصت مارغريت منها لتذهب وتفتش عن سوزان التي وجدتها في غرفتها تعيد تصفيف شعرها. ولم يعجبها تدّخل مارغريت فانتزعت الصبي وحملته إلى غرفة نومه. وهي تقول بغضب:

ـ لن أفعل هذا كل ليلة وأنت هنا الآن.

لم يقدم العشاء حتى ساعة متأخرة، وكان اجتماعاً صاخباً، لأن الخالة انيتا وسوزان كانتا كثيرتا الكلام. وتعبت مارغريت وهي تلاحق

الحوار، وتخلت عن الاستماع قبل وقت طويل من انتهاء الوجبة.

وقالت الخالة انيتا آمرة «أرجو أن تحضري القهوة يا سوزان».

ودفعت سوزان شعرها إلى الوراء محتجة:

ـ أنا لا أصنع القهوة الجيدة كما تصنعها ماري روز..

وأجابتها الخالة انيتا بجفاء:

ـ هيا، هيا.. افعلي ما قلت لك.

وتبعت مارغريت شقيقتها إلى المطبخ وساعدتها، وفيما بعد سألتها وهما على الطاولة بصوت منخفض «هل أساعدك بالصحون؟».

ولكن الخالة انيتا قالت «فيوليت ستنظفها صباحاً».

وقالت سوزان:

ـ شكراً لله، وإلا لكنت أنا من سأنظفها، مع أنه يوم إجازتي وماري روز تعمل متى تشاء...

وصاحت بها الخالة انيتا:

ـ.. اصمتي، يجب أن تتعلمي لعب دورك الطبيعي في حياة العائلة، فلم تأتي من باريس إلى هنا لتلعبي طوال النهار، غداً ستذهبين للتسوق وأنا أحضر الغداء. لقد طلبت من فيوليت أن تحضر لنا دجاجة من المزرعة، ما رأيك يا فرانسوا.

ـ رائع.. يجب أن نقيم احتفالا لوصول مارغريت، وعندما ينتهي التسوق ستبدأين مع شقيقتك بتعليمها الإنكليزية عليك أن تمضي ساعة في الدرس على الأقل. والتحدث طوال الصباح بالإنكليزية طالما مارغريت هنا. وهذا سيبقيكما بعيدتين عن الضجر.

وأطرقت سوزان، بينما شعرت مارغريت بالدماء ترتفع إلى وجنتيها، وتاقت لأن تقوم باعتراض ملتهب، فهي لا تحب ان تؤمر هكذا، كما لا تحب أن يتحدث إليها أحد وكأنها طفلة. فقد كانت أكبر سناً من أن تتقبل هذا. ولم تتمكن من السيطرة على الكلام

صاحت بغضب:

ـ أنا وسوزان نستطيع التحدث بالإنكليزية في أي وقت من النهار. والخالة انيتا بحاجة لمساعدتنا في الصبّاح.

وقالت الخالة انيتا محاولة تلطيف الأجواء:

ـ لا أبداً... عندي ڤيوليت لتساعدني في الصباح. وهذا ترتيب جيد.

ووقف فرنسوا عن الطاولة وأرسل إلى مارغريت نظرة ساخرة منتصرة:

ـ إذاً لقد تقرر الأمر..

ثم غادر الغرفة.

☆ ☆ ☆

٣ ـ الأخت الصغيرة

ومع ذلك فلم تجري الدروس بالإنكليزية كما هو مخطط. فرنسوا حددّ لهم عند سفره الطاولة الواسعة كمكان رسمي للدرس، ولكن فكرة الجلوس لفترة ساعة وإعطاء دروس لم يرق لمارغريت، ولا لسوزان كما كان ظاهراً.

على كل الأحوال، فالخالة انيتا تحترم أوامر ابن اختها كثيراً، وأخذت على عاتقها إيصال سوزان إلى مكان الدرس، بينما اعتبرت من المسلم به أن تحضر مارغريت وتنفذ الرغبات، ولو دبلوماسياً، دون تذكيرها بها.

وأخذت سوزان تحتج: «أنا لست طفلة في الخامسة من عمرها لتقولوا لي ما يجب أن أفعل» وأمضت كل وقتها متظاهرة بالتفتيش عن الكتب، واعترفت بصراحة أنها غير مهتمة أبداً بتحسين لغتها الإنكليزية.

في الدرس التالي، وبطريقة مفاجئة، تقدمت ماري روز وسألت

www.elromancia.com

وكأنها تعتذر إذا كان بإمكانها الجلوس معهما «هل تمانعين لو جلست لأستمع يا مارغريت؟ فانكليزيتي ليست جيدة وأرغب في تحسينها».

وردّت عليها مارغريت بسعادة «أهلاً بك». لا هي ولا ابنة زوج أبيها أشارتا إلى الخلاف الذي كان بينهما في الماضي. في الواقع لم يكن هناك ما تقولانه لبعضهما بعد. ولكن من خلال ما ادّعته من متابعة الدروس، حصل نوع من الاتصال بين الفتاتين.

وارادت ماري روز أن تعرف ما إذا كانت مارغريت تعيش بعيداً عن لندن فأجابتها مارغريت: «ليس بعيداً جداً.. فأنا أعيش في «كنت» في مقاطعة «كانتربري» إنها مدينة جميلة ومكتظة بالسكان. وليست بعيدة عن «دوفر». وأنا أذهب إلى لندن من وقت إلى آخر».

ـ أود لو أذهب إلى هناك، لقد شاهدت العديد من الصور، وهي لا تشبه باريس. أحب باريس، ولكنني أتمنى أن أزور لندن.

وشعرت مارغريت بالدهشة، فهي لم تفكر أبداً ان انكلترا تثير اهتمام ماري روز. وقالت لها سوزان:

ـ تستطيعين الذهاب إلى هناك في شهر العسل.

واحمّر وجه ماري روز بغضب، وسألتها مارغريت:

ـ هل أنت مخطوبة يا ماري روز.

ولم تجب ماري روز، ولكن سوزان احتضنت ساقيها وقالت:

ـ ستخطب عما قريب.. لفيليب لوران. وهكذا ستنشغل مدام هوبرت بنوا بفرنسوا وايلين فقط.

وقالت ماري روز بحدة:

ـ هذا يكفي يا سوزان.. ليس هناك شيء مؤكد، إضافة إلى أنك لا يجب أن تتحدثي عن علاقات فرنسوا مع.. مع أي أحد.

وتجاهلت مارغريت هذه الملاحظة، رغم أنها شعرت بأنها مهينة قليلاً. فمن المفترض أن تكون جزءاً من العائلة، ومع ذلك، ففي

الواقع لم تكن كذلك، وليس هناك من يدرك هذا أكثر منها. ولكن لا فرق. فهي تشعر بفضول عميق، فقد تذكرت أن مدام هوبرت بنوا هي مالكة المنزل ومزارع الكرمة عند مدخل القرية، وأرادت أن تعرف من هو فيليب لوران، وايلين، وما شأنهما مع مدام هوبرت بنوا، ولكن كرامتها منعتها من السؤال. من المحتمل لو أن ماري روز غير موجودة لأخبرتها سوزان كل شيء عن شؤون العائلة، فقد كانت ثرثارة، وهذا ما لاحظته مارغريت في وقت قصير. ولكن ماري روز غيّرت مجرى الحديث.

ـ هل لديك صديق في انكلترا يا مارغريت؟

ـ أوه لديّ عدة أصدقاء. ولكن لا شيء جدي.

ـ ولمن كنت تكتبين رسائلك ليلة أمس؟

وابتسمت مارغريت للطريقة الانشائية التي القت بها ماري روز السؤال، فسارعت الفتاة للقول: «هل تجدين لهجتي مضحكة؟».

ـ لا، بالطبع لا.. كنت فقط أبتسم لتفكيري بدهشة السيدة جوردن عندما تعرف أنني لست في باريس، ولكن في الريف. فقد كانت تحسدني على زيارة باريس.

وبدت ماري روز متحفظة وغير مقتنعة تماماً. وقالت سوزان، وهي تراقب وجه شقيقتها:

ـ لقد كتبت رسالتين، ورأيت الأسماء على المغلفات، واحدة باسم هنري جوردن.. هل هو صديقك؟

ـ لقد قلت لك إن لديّ عدة أصدقاء...

والتفت إلى ماري روز وسألتها:

ـ ما نوع العمل الذي تعملينه؟ هل تكسبين معيشتك؟

ـ لا أبداً! بعد انتهائي من الدراسة. أعمل أحياناً مع ليون في ديجون. فمنذ وفاة خالنا يدير فرع شركة التصدير هناك. وأحياناً أعيش

في باريس مع والدي، وأمنا الجميلة.. وأحياناً هنا مع الخالة انيتا وفرنسوا.

وتطوعت سوزان لإعطاء معلومات إضافية:

ـ ماري روز تحب الريف كثيراً. لأن صديقها يعيش هنا في «هوشيه ليزانج» مدام هوبرت بنوا هي جدته، هل تودين مقابلته يا مارغريت؟

ـ أجل.. بالطبع.

ولكن ماري روز لم تأخذ الأمر جدياً، ونسي الموضوع في الحال.

وفي اليوم التالي ذهبت ماري روز إلى «لي شارم» ولم تدعو مارغريت معها. ووصل فرنسوا بعد الظهر الى المنزل، وكانت مارغريت وحدها في غرفة الجلوس وبعد تبادل التحية جلس على مقعد مواجه لها وقال:

ـ ماذا كنت تفعلين اليوم يا مارغريت؟

ـ لا شيء مهم.

ـ هل أنت ضجرة..

ـ لم أقل هذا.. أعني لا شيء يهمك أن تعرفه.

ـ انت مخطئة أيتها الأخت الجميلة. أي شيء تفعلينه يهمني.

ـ حقاً؟.. إذاً أعتقد أنك ستكون مندهشاً لمعرفة أنني حضرت رضاعة جاك، وقرأت قصة لانطوانيت، و.. ماذا بعد.. آه أجل.. واريتها كل ما تحتويه علب الزينة عندي، والصورة التي على مرآة اليد خاصتي...

ـ كفى.. لا بد أن بيننا سوء تفاهم.. أعتذر، أين سوزان؟

ـ فوق.. تغسل شعرها.

ـ وشقيقتي؟

ـ ذهبت إلى «لي شارم» لرؤية... أحدهم.

ـ ولم تدعك للذهاب معها؟

ـ لا..

ـ الستما متوافقتان؟

ـ أنت تعلم أننا لم نحب بعضنا عندما التقينا أول مرة.

ـ ولا أنت أحببتنا.. جميعاً. أليس كذلك؟

ـ ولا أحد منكم أحبني..

ـ هل تتحسن سوزان بدروسها الانكليزية؟

ـ عليك أن تحكم على هذا بنفسك.

ونظر إليها قليلاً ثم تحرك ليقف.

ـ أنا ذاهب إلى «ارميت» لديّ بعض الأعمال. هل تحبين أن تأتي معي؟

ونظرت إليه غير مصدقة، وكأنه اقترح شيئاً غريباً، فهي لم تتوقع أبداً أن تتلقى أي نوع من الدعوات منه.

ـ أنا؟ ولماذا؟

ـ أنا لا أدعوك للذهاب إلى الصائغ. بل فقط إلى «ارميت» يا صغيرتي. قد تحبين أن تقومي ببعض التسوق. أو فقط لأجل النزهة.

ـ ولكن.. الخالة انيتا.. والأطفال..

ـ أوه، سوزان هنا، لقد عملت ما فيه الكفاية اليوم. وقد يفيدك بعض الراحة... حسناً؟

ـ أجل.. سآتي معك. سأذهب الى فوق و...

ـ لا.. لا حاجة بك لهذا. مظهرك رائع. أنت وردة انكليزية حقيقية اليوم. وإذا احتجت للمال سأقرضك بعضاً منه. وستكون مشكلة إذا اكتشفت سوزان هذا، فقد تحب أن تأتي معنا. وأنا أنوي الذهاب فوراً. ويجب أن يبقى أحد هنا لمساعدة الخالة انيتا.

ـ ربما الأفضل أن أبقى.

ـ أنا أعلم انك لست مهتمة برفقتي، ولكنني سأشعر بالإهانة.

وهكذا استسلمت مارغريت.

كان ممتعاً العودة من الطريق التي قدما بها من باريس. وألقت رأسها على مقعد السيارة وتركت الهواء يداعب وجهها عبر النافذة المفتوحة لسيارة «الستيروان»، كانت مرتاحة لتركها المنزل لفترة. فقد كانت تحت تأثير التوتر بطرق مختلفة، لا تتعلق كلها بفرنسوا، فهو الآن لا يزعجها. بل يتركها مرتاحة بصمت. وبدأت تفكر بما قاله عن الذهاب إلى الصائغ في «أرميت» وجمعت بين الصائغ والفتاة المدعوة ايلين التي ذكرتها سوزان، مما أوصلها إلى حالة عاطفية.

ونظرت بحذر إلى الرجل الجالس قربها. ولاحظت أنه في الثالثة أو الرابعة والثلاثين، قد أصبح من المؤكد أن الأوان حان ليس لخطبته فحسب بل لزواجه. وافترضت أنه بالنسبة لفتاة فرنسية لا بد أن يكون جذاباً ومرغوباً فيه. وخلال درس الإنكليزية اليوم علمت من سوزان أن جده قد ترك له «لي فلورنس» إضافة إلى رئاسة مؤسسة تمتلك عدة مزارع كرمة في المنطقة. ومن الواضح أن إشارة سوزان إلى انشغال مدام هوبرت بنوا بفرنسوا وايلين تعني أنها تريدهما أن يتزوجا. ومالت لسؤاله عمن تكون ايلين. ولكنها لم تستطع سؤاله هكذا فجأة، وشعرت بغرابة موقفها في عائلة لا تعرف شيئاً عن حياة أفرادها الخاصة. وقطع تفكيرها سؤال فرنسوا.

ـ هل تلقيت أي خبر من خطيبك؟

ـ إذا كنت تعني هنري جوردن.. لا.

ـ طبعاً أعني هنري جوردن. ومن غيره؟ من المؤكد أن عندك خطيب واحد؟

ـ صحيح.. ولكنني لست مخطوبة له! أو لأي شخص آخر.

ـ لاحظت أنك لا تلبسين أي خاتم. ولكن السيدة جوردن أوضحت الوضع تماماً.. على كل، إذا كنت غير راغبة في بحث شؤونك

الخاصة معي.. سأنسى الأمر.

ـ شكراً لك. ألا تعلم أن الانكليز محافظون؟ من المفترض أن الفرنسيين هم من يقولون كل شيء عن تفاصيل حياتهم الخاصة. وهذا ما لم ألاحظه في عائلتكم. على الأقل حتى الآن.

ـ تبدو عليك خيبة الأمل. ماذا تريدين أن تعرفي؟ شيء عني؟ أنا لست متزوجاً، ولا خاطباً. وليس لي حبيبة، مع أنني أعتقد أنك تظنين أن كل فرنسي له حبيبة. هل هذا يكفي؟

ـ تماماً، ولكنني لم أكن أفكر بك، في الواقع كنت أفكر بماري روز.

ـ أنا متأكد أنها لن تحاول إخفاء شيء عنك، من المحتمل أن تخطب قريباً، ولكن حتى ذلك الحين، ليس من الضروري بحث الأمر، أليس كذلك؟ إنه شأنها لوحدها.. أظن أن سوزان كانت تكثر الكلام.

ـ لا.. لم تكن. كل ما قالته كان أمام ماري روز.

ـ لا حاجة للدفاع عنها. كلنا نعلم أن السرية ليست من طباع سوزان. وماذا قالت لك أيضاً من أسرار العائلة؟

ـ لا شيء.. ولكنني استنتجت أن العائلة تحاول تدبير هذا الزواج.

ـ أؤكد أن ماري روز لن تتزوج من شخص لا تحبه. مع أن الحب لا يضمن السعادة. والزواج المبني على الحب فقط قد ينتهي إلى كارثة.

ـ أعلم هذا..

ـ في الواقع هناك الكثير يقال عن الزواج المدبر، وأنا أول من أدين هذا.

وكانا قد وصلا الآن إلى «ارميت» ويسيران عبر شارع عريض على

جانبيه حدائق لها أبواب عريضة حديدية، وبركة، وتمثال أبيض من الرخام. واستدار فرنسوا يميناً إلى موقف سيارات كبير. وقال:

ـ عملي سيستغرق حوالي الساعة.

وأخرج محفظته وأعطاها لها.

ـ خذي هذه في حال أعجبك شيء في الواجهات.

ـ لا، شكراً لك.

ـ لا تكوني حساسة حيال الأمر. أعلم تماماً كم فيها من مال.. مئة فرنك... إنه مبلغ قليل، وتستطيعين إعادته عندما نعود إلى المنزل.

ـ لن أحتاج للمال.

كانت تقول هذا بغباء، ولكن نظرته الصارمة جعلتها تقول:

ـ حسناً سآخذ عشر فرنكات. كل ما قد أريده شراب بارد أو قهوة.

ووضعت المال في حقيبتها وأعادت إليه المحفظة وسارا معاً نحو الشارع الرئيسي.

ـ سنتناول شراباً معاً فيما بعد. سألتقيك أمام المقهى في الجهة المقابلة. أجلسي عند إحدى الطاولات لو تأخرت.. وسأفعل أنا الشيء نفسه.. بعد ساعة إذاً.

وقطعت مارغريت الشارع نحو الجانب المظلل، وأخذت تتفرج على واجهات المحلات، يبدو أن أرميت بلدة مزدهرة، وواجهات المحلات جذابة، كما لاحظت أن العديد من المحلات مقفل بسبب عطلة الصيف. ولكن بقي الكثير منها للتفرج عليه، ووجدت تسلية في مراقبة الناس، وسماع أحاديثهم السريعة بالفرنسية وأحست بنفسها حقاً، ولأول مرة، أنها في فرنسا، بين أناس يختلفون تماماً عن الإنكليز.

كان كل شيء يبدو جديداً على مارغريت، ولكنها لم تشتر شيئاً، ولاحظت أن أمامها نصف ساعة بعد قبل لقاء فرنسوا، وقررت أن

تشتري بعض الحلويات لانطوانيت ووقفت أمام واجهة مليئة بالحلويات، كلها غالية الثمن ولكن تستطيع بالعشر فرنكات أن تشتري بعض الحلوى المصنوعة من الفواكه الصافية وهذه ستكون أفضل من الشوكولا لانطوانيت.

ودخلت المحل وشرحت بدقة ما تريده، ونظر اليها أحد الشبان وابتسم لها وكأنه يعرفها. ولم ترّد عليه ولكنها لم تستطع كبح نصف ابتسامة، ولكن هذه تلاشت فوراً عندما مدت يدها إلى حقيبتها لتجد أن المال قد ضاع.

أوه.. يا للسماء.. كم هذا مخيف؟ لا بد أنها وقعت منها في مكان ما. ونظرت إلى البائعة وهي تحضّر لها العلبة، وقد لفتها بورق زهري وربطتها بشريط فضي.

وابتلعت مارغريت ريقها بصعوبة. لم يكن هناك أمامها سوى أن تعترف بأنها أضاعت المال، وشعرت بأنها غبية تماماً. ولم تعد تتذكر كلمة فرنسية واحدة. وحاولت أن تجمع الكلمات في فكرها عندما تقدم الشاب الأشقر ليسألها بصوت انكليزي بحت:

ـ ما الأمر.. ؟ هل فقدتي حقيبتك؟

ـ حقيبتي؟

ـ إذاً محفظة المال.. أليس كذلك.

ـ في الواقع.. نعم. إنها عشر فرنكات، لقد وضعتها دون عناية، وبغباء.

ـ لا تقلقي.

وأدخل يده في جيبه وأخرج المال المطلوب وأعطاه للبائعة، وفي اللحظة التالية كان يسيران في الشارع معاً، وكلاهما يضحك.

ـ سأعيد لك المبلغ، هل تنتظرني عشرين دقيقة؟

ـ أستطيع الانتظار أكثر لو تناولت القهوة معي.

ـ أحب هذا..

ـ هناك مقهى صغير قريب. سنذهب إلى هناك.

ـ هل أنت انكليزي؟

وكان قد قطعا الطريق نحو المقهى الذي ستنتظر فرنسوا عنده.

ـ إذاً لهذا ابتسمت لي.. اعتقدت أنك ترغب في التعرف إليّ..

ـ أجل.. ولقد نجحت.. أليس كذلك؟

ـ هذا من حسن حظي.. هل تعيش في فرنسا؟ فأنت تتكلم الفرنسية بشكل رائع.

ـ لقد تربيت بين البلدين. أمي فرنسية وبلدي انكلترا. واسمي مارك هازلنغ.

ـ أنا مارغريت ماسترز.

وجلسا إلى احدى الطاولات، مقابل بعضهما في ظل مظلة حمراء، كانت تعطي ظلاً أحمر تحت الشمس. وابتسما ونظرا إلى بعضهما بفضول. وسرت مارغريت للنظرة من عينيه الزرقاوين التي أخبرتها بأنه وجدها جذابة. وطلب القهوة. واستمعت إلى صوته وهو يقول:

ـ ماذا تفعلين في «ارميت» هل أنت في اجازة؟

ـ كنت أتجول في البلدة فقط . لقد أتيت إلى هنا مع ابن زوج أمي. هو من «هوشيه ليزانج» هل تعرفها؟ إنها قرية صغيرة.

وأدهشتها ضحكته وهو يقول:

ـ طبعاً أعرفها، أنني أعيش هناك مع جدي منذ أسابيع. من هو ابن زوج أمك؟

ـ فرنسوا دوڤال. وأمي متزوجة من أبيه.

ـ يا إلهي.! لقد التقيت به بالطبع. وماري روز أيضاً.

ـ حسناً.. لا أعتقد أنني أعرف جدتك، فلم أقابل أحداً في القرية

بعد هل هي فرنسية أم انكليزية؟

ـ إنها فرنسية حتى العظم.. هل تعرفين المنزل الكبير عند أطراف «هوشيه»؟

ـ أجل طبعاً، إ ن له تأثير خاص.

ـ أجل.. إنه ضخم.. وقديم جداً يحتاج إلى سقف جديد، وتصليح التدفئة المركزية. وهناك عدة إصلاحات ضرورية. ولكن المشكلة بعدم وجود المال. وجدتي.. مدام هوبرت بنوا، لا تملك سوى كرم عنب واحد، وهو «لي شارم» ولا يعطي انتاجاً جيداً. لذا لم يكن لديها المال الكافي. كنت أذهب الى هناك مع أمي عندما كنت طفلاً، وكانت أمي الابنة السيئة التي تزوجت انكليزياً. ولم آتي إلى هنا منذ زمن بعيد حتى هذه السنة. والدي منتج دهانات، ولكوني الابن الأكبر فمن المتوقع أن أهتم بالعمل. ولكن النوع الوحيد من الدهانات التي أهتم بها هي الزيتية، فلدي ميل لأكون فناناً.

ـ حقاً؟ وهل ستدرس الفن في باريس؟

ـ ليس عندي مثل هذا الحظ، أنا أتابع دروساً ليلية في انكلترا. ولقد أعفاني والدي الآن من الارتباط معه لمدة سنة حتى أكتشف بنفسي ما أريد. وفكرت أن أفرض نفسي هذا الصيف على جدتي إنها لا تحب الانكليز، ولكن والدتي ظنت أن باستطاعتي اكتساب ودها. واعتقد أنني نجحت نوعاً ما. إنها تحبني قليلاً ولكنها تكره تصرفاتي الإنكليزية.. يا الهي أنا أتكلم عن نفسي كثيراً، أليس كذلك؟ لنتحدث عنك. لم يمضِ عليك الكثير هنا وإلا كنت سمعت شيئاً عنك من ايلين بالتأكيد.

ـ لا.. لم يمض عليّ زمن هنا، ولكنك جعلتني أحتار، من هي ايلين؟

ـ إنها ابنة خالتي.. ايلين موران، أمها الابنة الجيدة التي تزوجت

من فرنسي، وهي تعيش هنا في ارميت مع والديها. خالي انطوان محامي وهي تعمل عنده. وتذهب إلى هوشيه في نهاية الأسبوع، جدتي ترسل فيليب ليأتي بها، وهو شقيقها، ويدير مزرعة العنب لجدته.. إنه شخصية رائعة.. فرنسي مثالي.

ـ وأنت لا تحبه؟

ـ أوه.. بل أحبه.. إنه عظيم.

ـ أظن أنه وماري روز صديقان مقربان.

ـ هذا صحيح.. اتريدين شيئاً من القهوة بعد؟

ـ الأفضل لا.. فرنسوا سيحضر إلى هنا في أية لحظة الآن. من المفترض أن أقابله هنا..

ـ كما تريدين.. هل ماري روز معه؟

ـ لا لقد ذهبت لتزور جدتك.

ـ ولم أكن أعلم أنها قادمة، كان يجب أن أخمن. لقد أرسلوني لبعض المشتريات، وأحتاج إلى بضع أصابع من دهان الرسم. حسناً، لن أنتظر وصول فرنسوا...

ـ ولكن يجب عليك، فأنا مدينة لك بعشر فرنكات!

ـ اوه.. تستطيعين إعادتها في أي وقت.. يجب أن تأتي لزيارة القصر في وقت ما، لتشاهدي لوحاتي الشهيرة.

ـ سأحب هذا..

ـ سأبحث الأمر مع جدتي قبل أن أدعوك، إنها عجوز رسمية في تعاملها. ولا توافق على طريقتي الإنكليزية المرتجلة. وعلى فكرة، أنت تتكلمين الفرنسية جيداً وهذا سيروق لها. هل أنت انكليزية صرف، أم نصف نصف كما أنا؟ لا استطيع تصور عائلة دوڤال بزوجة أب انكليزية.

ـ أمي فرنسية، ولكنني لم أتربى بين بين مثلك، وعليّ أن أفكر

كثيراً قبل قول أي شيء معقد بالفرنسية، وتمتعت حقاً بالتحدث معك بالانكليزية.

ـ وماذا تفعلين طوال النهار؟

وكانت على وشك أن تقول له، عندما وصل فرنسوا، وبدا عليه الانزعاج لرؤيتها جالسة مع شاب، ووقف مارك وتبادل الرجلان التحية بطريقة رسمية، ولم يجلس مارك ثانية بل قال:

ـ اعذراني.. عليّ الذهاب.. سأتصل بك مارغريت...

وتركهما وذهب دون أن تذكر مارغريت المال، إذ بامكانها أن تدفع المبلغ فيما بعد.

ـ أرى أنك تناولتي القهوة؟

ـ فنجان صغير فقط.. وأستطيع تناول آخر. هذا إذا كنت ستتناول فنجاناً.

ـ سأفعل.. لم أكن أعلم أنك التقيت بمارك هازلنغ من قبل.

ـ لم أفعل.. لقد التقيته لتوي.

ـ اتعنين أنه التقطك هكذا؟

ـ أعتقد بإمكانك قول هذا.

ـ وسمحت له؟

ـ هذا واضح.. ولكن لماذا لا..؟ إنه إنكليزي.

ـ يا إلهي! اتعنين أنك تتركين كل انكليزي يلتقطك لمجرد أنه انكليزي؟

ـ طبعاً لا أفعل هذا! ولكنه بدا لطيفاً، وماذا سيحدث لو جلست معه في مكان عام؟

ـ هل طلب منك مشاركتك الطاولة؟

ـ لا.. في الواقع التقينا في محل الحلويات.. وتبادلنا الحديث بالانكليزية، هل رأيت الصائغ. واتممت أعمالك الأخرى؟

ـ أجل كان عليّ رؤية المحامي.. مسيو موران.
ـ وايلين، التي تعمل عنده... لقد اشتريت بعض الحلوى لانطوانيت وسأدفع لك المال عندما نعود إلى المنزل.
ـ لا تهتمي بالأمر.. هل نذهب؟
وفيما هما يقطعان المسافة القصيرة نحو موقف السيارات سألها:
ـ هل تمتعتي بوقتك؟
ـ كثيراً... شعرت بالسعادة أن أتكلم مع انكليزي ثانية.
ـ يثير دهشتي أن تكرري تسمية حفيد مدام هوبرت بنوا بالانكليزي. أخشى أن لا يعجبها هذا.
ووصلا السيارة، وصعدت إلى داخلها وقالت متابعة الجدال:
ـ سأستمر بدعوته إنكليزي أكثر من فرنسي، إضافة إلى أنك تعتبرني انكليزية، أليس كذلك؟
والتفت إليها محدقاً وقال «بالضبط».
ـ إذاً مارك انكليزي ايضاً. وهو يعجبني..
ـ ليس لوقت طويل.. كما آمل.. فهناك معجب بانتظارك في انكلترا.
ـ لأجل السماء.. الم تسمع بشيء اسمه الصداقة البريئة؟
ـ إنه شيء لا أؤمن به. هل يؤمن الفرنسي بهذا؟
ـ مارك ليس فرنسياً.
ـ إنه نصف فرنسي.. لقد انجذب اليك منذ اللحظة التي تحدث فيها معك. اليس كذلك؟
ـ لم الاحظ.
ـ سوف ترينه مجدداً، أليس كذلك؟
ـ أجل.. ولن تقول لي إن هذا غير مسموح، كما أرجو.
ـ لا أفكر بالتدخل فيما بينكما. تستطيعين أن تتصرفي بحياتك كما

يحلو لك. كل ما آمله أن لا تزجي بنفسك في مغامرة، وينتهي بك الأمر إلى وضع لا تستطيعين الهرب منه.
ـ أخشى أن الأمر لا يعنيك. ولن يكون الأمر مؤثراً عليك.. وأنا متأكدة أنك ستكتب لأمي عن الموضوع.
ـ لا.. ولكن من الطبيعي أن أفضل أن تبتعدي عن مشاكل قد ترغبين في الخلاص منها فيما بعد. فالقصد من بقائك هنا، العيش معنا وإقامة علاقات عائلية جيدة، أتذكرين؟
ـ لا تقلق، لم أنسى.. ولكنك لا تستطيع النسيان، أليس كذلك؟ إنك تجد الاخطاء كلما تبادلنا بضع جمل.
ـ وهل أفعل؟ ربما ذلك عائد إلى أنني أجد صعوبة في التغلب على حكمي المسبق عليك. لقد كنت فتاة معارضة في المرة السابقة التي اتيتي بها إلى هنا.
ـ شكراً لك، من الجيد أن تذكرني بهذا على الدوام، إنه شيء غير مسموح لي أن أنساه، أليس كذلك؟
ـ انه عمل لا يمكن السماح لك بتكراره.
ـ وكأنني سأعيد ما فعلت!
قالت هذا بغضب، واستلقت على المقعد محدّقةً خارج النافذة، ما هذا الجدال الأحمق العقيم! ألن يتوقف عن الضرب على وتر سوء التفاهم الماضي؟ لم يذكر أي واحد منهم ماري روز كم كانت متوحشة معها في تلك السنوات. ولكن ماري روز فرنسية... لآخر سنتميتر مكعب منها، كما يقول مارك هازلنغ. التفكير به أشعرها بالمرح. سيكون مفرحاً لها أن يكون لها صديق من خارج عائلة دوفال، وصديق انكليزي. وستختار أن تدعوه الانكليزي، في مطلق الأحوال. في الواقع العضو المؤثر أكثر سيكون فرنسوا، وبالنسبة له تستطيع أن تكون حذرة، ومرتاحة تماماً، في «هوشيه ليزانج» ولن

يكون هناك مشكلة أبداً. وأي وضع مستحيل قد تضطر إلى الخلاص منه سيكون هو سببه.. وليس صداقتها لمارك هازلنغ. وهي مقتنعة بهذا.

وهذا الاقتناع اثبت فيما بعد أنه حقيقي، مع أن ذلك لم يتم بالطريقة التي تصورتها.

☆ ☆ ☆

٤ ـ لا صداقة بريئة!

بعد يومين من هذا، ذكرت ماري روز، أثناء درس بالإنكليزية، تهربت منه سوزان لعذر واهي، أنها وفرنسوا مدعوان إلى منزل مدام هوبرت بنوا، وأنهما سيذهبان عند الخامسة ويبقيان لتناول العشاء.

واندهشت مارغريت لأن الدعوة لم تشملها، ولتغطية مشاعرها قالت:

ـ هل هي حفلة عشاء؟

ـ لا.. إنه عشاء عائلي.. فيليب سيكون هناك وايلين بالطبع.

ـ ومارك هازلنغ؟

ولاحظت أن ماري روز هي التي دهشت هذه المرة حتى أنها اوقعت القلم من يدها، ثم التقطته وقالت:

ـ لم أكن أعرف أنك التقيت بمارك يا مارغريت. هل التقيته في القرية يرسم خلال إحدى نزهاتك مع الأطفال.

ـ لا.. بل التقيته يوم ذهبت إلى ارميت مع فرنسوا.

www.elromancia.com

ـ ولكنك لم تذكري هذا من قبل.
ـ لم أكن أظن أن احدكم سيهتم بالأمر.
ـ أنا آسفة نحن عادة نستثنيك من أحاديثنا... لقد التقيت بمارك عدة مرات. ألم يقل لك إننا نعرف بعضنا؟
ـ أجل.. قال إنه التقى بك وبفرنسوا.. لقد التقينا صدفة في محل بيع الحلويات، ولاحظ لهجتي الإنكليزية.
ـ ألم تشاهديه بعدها؟
ـ لا.. ولكنه وعدني أن يدعوني إلى القصر. أحب أن أرى لوحاته.
ـ اه.. أجل.. والآن إذا لم يكن لديك مانع، أظنني اكتفيت من الدرس الإنكليزي لهذا اليوم. وهناك أشياء أود عملها. أرجوك اعذريني.

وابتسمتا لبعضهما، والتقطت ماري روز دفتر ملاحظاتها، وذهبت.

وقطبت مارغريت مفكرة. لا تزال هناك هوة بينهما يبدو من المستحيل ردمها. وسارت لوحدها الى غرفتها، غرفة الأصدقاء، هل هي مجرد صديقة؟ لا.. إنها ضيفة. في الواقع هي غير مناسبة في عائلة أمها هذه، واحست بالصدمة لأنها لم تدعى إلى انتماء هذه العائلة. ووقفت مضطربة في وسط الغرفة تنظر إلى انعكاس وجهها في المرآة. وبدت شاحبة دون لون، وشعرها مشوش وعيناها غامضتان، فمها كبير ونحيلة، وتفتقر الى الانحناءات الأنثوية التي تمتلكها ماري روز. إنها وردة انكليزية، هكذا قال فرنسوا. ولاحظت اللون يتصاعد فجأة إلى خديها، لا بد أنها تشعر بالغضب.

وتجولت بقلق عند النافذة. لقد تأخر درس الانكليزية اليوم لأن انطوانيت كانت تعاني من لسع بعض الحشرات، إنه البرغش كما قالت الخالة انيتا، ومن الصعب ملاحظته في هذا الشهر من الصيف.

وكانت سوزان قد ذهبت إلى الصيدلية لشراء مرهم يلطف اللسعات، وتأخرت في العودة.

وتتابعت أفكارها إلى أن وصلت إلى ايلين. لا بد أنها أنيقة جميلة ومثقفة، كل ما يمكن للفتاة الفرنسية الحصول عليه. إنها مثال الزوجة لرجل مثل فرنسوا دوقال. الذي لن يحلم أبداً سوى بالزواج من فتاة فرنسية.

وتوقفت مارغريت عن أفكارها، لماذا بحق السماء تضيع وقتها بالتفكير في فرنسوا وذوقه في الفتيات؟ لا يهمها البتة من يتزوج أو إذا تزوج. ولكنها فكرت فقط بأنه كان يجب دعوتها إلى العشاء الليلة، وهذا ما أصابها بالإحباط.

وذهب فرنسوا وماري روز. ونامت انطوانيت وقد أرهقها ألم اللسعات باكراً، وكذلك فعل جاك. ونزلت الخالة انيتا من غرفتها بعد القيلولة إلى الحديقة، حيث كانت مارغريت وسوزان تلعبان التنس على المرج الأخضر. وجلست تحت شجرة الكستناء تعمل بأشغال «الكروشيه». وفجأة صاحت:

ـ أوه.. لقد نسيت تماماً أن أقول لفيوليت أن تجلب معها أرنباً في الغد من المزرعة. لقد كنت أنوي طبخه للعشاء.

ورمت سوزان المضرب من يدها وقالت:

ـ سأذهب أنا ومارغريت إلى هناك يا خالتي. وسنطلب ما تريدينه.
ـ هذا ما أريده.. ولكن أنت تعلمين ان فرنسوا لا يرغب بابتعادك عن المزرعة.
ـ آه.. قد لا يمانع إذا ذهبت مع مارغريت. نستطيع الذهاب على الدراجة.. وسيفيدنا هذا التمرين. ما رأيك يا مارغريت؟ لقد قلتي إنك راغبة في زيارة المزرعة.
ـ أجل.. أحب أن أذهب..

ولكنها فكرت أن من السخافة أن يضع فرنسوا حدوداً لحرية سوزان. ولم ترى سبباً يجعل من تلك الحدود تصل إليها، فتابعت قولها:

ـ سنطلب لك الأرنب إذا قلتي لي ما أستطيع فعله وما لا أستطيع. ستجدين أنني لست موافقة على الدوام على ما يريده مني ابن اختك وأنا أعيش تحت سقف بيته.

ووصلت الرسالة إلى الخالة انيتا، لأنها قالت بعد أن هزت كتفها:

ـ حسن جداً.. إذا ذهبتما معاً.. ولا لزوم لذكر الأمر أمام فرنسوا.

وكتمت سوزان ضحكتها ووضعت ذراعها في ذراع مارغريت. وتوجهنا إلى الكاراج حيث كان هناك دراجتان، وبعد بضع دقائق كانتا تقودان الدراجتان على الطريق نحو المزرعة. وسألتها مارغريت:

ـ هل سنمر بمعصرة فرنسوا للعنب؟

ـ لا.. بل سنذهب في طريق ريفية صغيرة بعد دقيقة أو اثنتين.

الطريق الريفية كانت ضيقة وغير سوية، وتنمو على أطرافها اشجار كبوش العليق. وهناك حقل مترامي الأطراف، تنمو فيه الزهور الصفراء البرية، وتنشقت مارغريت رائحة الريف المنعشة، وسرّت بمنظر السماء الزرقاء وتحليق الطيور من فوقها. وقالت لسوزان:

ـ الناس هنا لا يزورون بعضهم في البيوت كثيراً.. أعني أنهم لا يأتون فجأة.. يا سوزان؟

كانت تحاول جر سوزان إلى الكلام حول عائلة موران ومدام هوبرت بنوا، وشعرت بالخجل من نفسها، ولكنها لم تكن قادرة على منع فضولها.

وتابعت سيرها على الدراجة باضطراب وهي تشعر بأنها ستقع، لماذا لا تنزل عن الدراجة وتمشي قبل أن تندم. وركزت سوزان ايضاً على توازنها، ولم تردّ على شقيقتها لبضع ثواني.

ـ أتريدين أن تعرفي لماذا لم يدعوك إلى «لي شارم»؟ سأقول لك لماذا. لأن مدام هوبرت بنوا تفضل أن تتجاهلك كما تتجاهلني. تريد أن يطلب فرنسوا من ايلين موران أن تتزوجه. لذا لا تريد أن يكون أحد معهم.

ـ أوه.. هكذا الأمر إذاً؟... وهل تظنين أنه سيفعل؟

وضحكت سوزان بسخرية:

ـ لا.. لن يتزوج ايلين أبداً. إنها رقيقة جداً لرجل مثل فرنسوا.

وتخلت فجأة عن ركوب الدراجة بعد أن أصبحت الحفر أعمق، ونزلت إلى الأرض. وفعلت مارغريت مثلها. واستطاعت أن ترى مبنى المزرعة أمامها. وسارتا معاً تجران الدراجات باتجاه المزرعة وشمس بعد الظهر لا تزال مشعة فوقهما.

ـ وماذا تعنين بقولك رقيقة جداً؟

ـ اوه.. لا شخصية لها.. ولن يتمتع أبداً بسيطرته عليها عندما تقول على الدوام.. نعم فرنسوا... لا فرنسوا.. ولا تجادل أبداً. وفرنسوا يفضل من تقاتله قليلاً، ألا تظنين هذا؟

وهزت مارغريت كتفيها بلا مبالاة ولم تردّ. حسب خبرتها عنه، هو دائماً متحفز للجدال والقتال. ولكن ما إذا كان يجد مقاومة رغباته من امرأة أمر جذاب فهذا أمر آخر، فهي لا تتصور أنها سحرته بمعارضتها له، ومالت للاعتقاد أن ايلين، بنعم فرنسوا، لا فرنسوا هي التي قدّمت نفسها له، وأعادت سوزان السؤال بإصرار:

ـ حسناً.. ألا تظنين هذا؟

ـ ليس لديّ فكرة حقاً. ولم أفكر ما هي المزايا التي تعجب فرنسوا بالفتاة.

ـ لم تفكري؟.. حسناً أنا فعلت، وسأقول لك سراً يا مارغريت هناك سبب آخر لأن لا يتزوج فرنسوا من ايلين أبداً. فأنا أعرف أن

هناك فتاة أخرى في حياته.

ـ فتاة أخرى؟ ومن هي؟.

ـ اوه.. لن اقول لك، لقد قلت لك إنه سر. سيغضب فرنسوا إذا اخبرت أحداً، إضافة إلى أنه لا يعرف بأنني أعرف، ولكن هذه هي الحقيقة، وبسببها لم يتزوج...

وفجأة قفزت عائدة إلى دراجتها وقالت:

ـ انظري نستطيع متابعة ما تبقى من الطريق ركوباً. فقد مهد العجوز والد ڤيوليت هذا الجزء من الطريق.

وصعدت مارغريت إلى دراجتها، وبعد بضعة دقائق، قضتها في التفكير بذلك «السر» الذي تعرفه شقيقتها، وصلتا إلى بوابة حديدية كبيرة تؤدي إلى فناء المزرعة وإلى جانبها بوابة صغيرة تبعت أختها إلى داخلها سيراً على الأقدام بعد أن وضعتا الدراجتين عند الحائط.

وقالت سوزان بصوت منخفض:

ـ إنهم هنا من الريفيين، ولن أقدمك لهم، هل فهمتي.

فوق سقف مكان حلب الماشية عشش الحمام والسنونو في السقف الخشبي، بينما في الفناء الكبير انتشر الدجاج، ثم دخل طائر صغير وتجول قليلاً وكأنما أضاع طريقه ثم خرج، وصاح رجل من داخل سقيفة الحليب شيئاً لم تفهمه مارغريت وأجابت سوزان أنهما تريدان رؤية ربة المنزل بخصوص أرنب. وصرخ الرجل ثانية، بصوت أعلى هذه المرة، فخرجت امرأة قصيرة بدينة ترتدي ثوباً أسوداً من البناء عبر الفناء. تبعها بعد قليل شاب أسمر شعره أسود يرتدي ثياب العمل ووقف يحدق بالفتاتين ويداه على خصره.

وركضت سوزان إلى الفناء ولحقتها مارغريت ببطء، متجنبة النظر إلى الرجل الذي يتفحصهما، وسمعت سوزان وهي تطلب الأرنب، مسلوخاً، ثم خرج الرجل من داخل سقيفة الحلب وسأل مارغريت إذا

كانت تحب أن ترى الابقار وهي تحلب. وأجابت بأنها ستكون مسرورة لهذا، ثم تبعته إلى السقيفة. كان يرتدي «اوڤرأول» أزرق داكن وقبعة فوق وجه أحمر وخشن، وواقع أنها تتكلم الفرنسية أعجبه، فسألها «انجليز» واجابته بنعم وتساءلت لماذا يعارض فرنسوا مجيء سوزان إلى هنا، فقد كان أهل المكان طيبين وودودين. وأخذ يريها بفخر الأبقار المتوقفة وماكينات الحلب، والبراد الكبير من الالمنيوم الذي يستقبل الحليب، والخلاط الذي يفصل الزبدة عن الحليب. الفناء في الخارج كان قذراً مهملاً، بينما هنا في الداخل كل شيء نظيف تماماً. وعلمت مارغريت بعد أن استعادت ما قاله الرجل عدة مرات أن الحليب يؤخذ من المزرعة كل يوم ويؤخذ الى معمل حيث يستخدم للزبدة، والكريما والجبنة.

وشكرته مارغريت وخرجت لتجد أن سيدة المنزل كانت قد ذهبت إلى الداخل، بينما وقفت سوزان متكئة على الحائط تتحدث إلى الشاب الذي رأته عندما دخلت إلى هنا. وصدمت للنظرة التي يرمق الرجل بها شقيقتها. وكان هناك شيء في هذا المنظر لم يعجبها. فتاة السادسة عشر الجميلة بجدائلها الشقراء تتماوج على خديها. والفلاح الخشن المظهر يقف قريباً منها كثيراً، يستمع إليها بابتسامة على وجهه إلى ما كانت تقول. وتحركت مارغريت نحوهما.

ـ سوزان؟...

ـ انا قادمة، دقيقة واحدة.

وشاهدت التماع أسنان شقيقتها البيضاء وهي تبتسم للفلاح. وقال لها شيئاً وهزت برأسها، ثم ركضت نحو شقيقتها. وسألتها مارغريت عندما عبرتا البوابة ثانية:

ـ من هذا؟

ـ إنه ارمان دولان، إنه شقيق ڤيوليت. أعرفه منذ سنوات. لقد

التقيت به عندما كنت مريضة وأرسلتني أمي إلى الريف. إنه وسيم.. أليس كذلك؟

ـ هل هو وسيم؟.. لم الاحظ هذا.

ـ أوه مارغريت! ما بالك؟ لا بد أنك لاحظتي! إنه مثير.. أكاد أموت عندما يتحدث إلي. أحس بأجمل المشاعر تتسلل إلى جسدي...

إذاً، لهذا لا يحب فرنسوا أن تذهب سوزان إلى مزرعة دولان. بسبب أرمان. ولكن ليس هناك من ضرر بهذا، أكيد. الأمر يثير سوزان وهذا كل شيء، وهي لا تزال في السادسة عشر وأي فتاة في عمرها تحلم أحلام يقظة رومانسية، حول رجل وسيم وهذا أمر لا يؤذي أبداً، وهو طبيعي وعادي في هذا السن، وحمدت الله أن الخالة انيتا قررت أن لا يعرف فرنسوا بالأمر.

ولكن سوزان لم تكن قانعة بعدم ذكر زيارتهما إلى المزرعة، فعند العشاء في اليوم التالي، وهم يتناولون الأرنب المطبوخ، ذكرت عرضياً بأنهما كانتا في مزرعة دولان.

ـ إنه أرنب ممتاز أليس كذلك خالتي انيتا، لقد طلبت من السيدة دولان ما رغبتي به تماماً. ولقد ضحك عليّ ارمان عندما قلت إننا نريده مسلوخاً دون رأس.

وكأنها لم تلاحظ النظرة الغاضبة على وجه فرنسوا، فأخذت لقمة اخرى من الطعام وصاحت واللقمة ما زالت في فمها.

ـ أوه أرمان هذا، أولا، لا. إنه وسيم جداً! آه يا مارغريت؟

ونظر فرنسوا نظرة غضبى إلى مارغريت من بين حاجبيه المقطبين.

ـ إذاً.. لقد ذهبتما إلى المزرعة، كليكما، هل استطيع أن أسأل لماذا.

ـ أوه.. يا فرنسوا.. ألم أقل لك؟ الخالة انيتا أرادت...

وقاطعتها الخالة انيتا قبل أن تستمر وتسوء الأمور أكثر.

ـ لسوء الحظ نسيت أن أطلب الأرنب من ڤيوليت يا فرنسوا، وكي أتخلص من اضطراري لتغيير ما قررته للعشاء، عرضت الفتاتان الذهاب إلى المزرعة، وليس هناك ضرر من هذا. لقد ذهبتا معاً. وبالطبع ما كنت لأسمح لسوزان بالذهاب وحدها.

ـ أنا متأكد أن سوزان لن ترغب في الذهاب لوحدها.

وتدخلت ماري روز.

ـ لقد ذهبت إلى هناك مرة مع فيليب، اوه، رائحة فناء المزرعة! والوسخ تحت الأقدام! إنه مقزز للنفس! ووقف ولد، أستطيع القول إنه احد ابناء دولان، يحدّق بي طوال الوقت، ولم أشعر بعدم الراحة طوال حياتي مثل ذلك اليوم. وهذه آخر مرة أذهب إلى هناك. أعد بهذا، أفضل عدم تناول اللحم لأسبوع على أن أذهب لاحضاره من هناك، ألم تجدي المكان غير مرغوب فيه يا مارغريت!

وابتسمت مارغريت، أفكارها مختلطة، ولكن شيء واحد واضح في ذهنها: إنها لا تريد أن تقف إلى جانب فرنسوا، ومع ذلك لا تريد عدم الموافقة على رأي ماري روز الواضح أنه جيد، والتي تحاول جذب الانتباه قليلاً عن سوزان، الغبية التي أشعلت المسألة. وهكذا تراجعت عن إبداء أي رأي، وتابعت طعامها مع أنها بدأت تفقد شهيتها. وتحدث فرانسوا كيف أن تفكير مارغريت بالموضوع له أهمية:

ـ انطباع مارغريت هو عدم الاهتمام. فالإنكليز على الأغلب لديهم أفكار مختلفة عن آرائنا. والمسألة هنا أنني أوضحت أن سوزان يجب ان لا تذهب إلى مزرعة دولان. لا لوحدها ولا مع شقيقتها الإنكليزية وأرجو أن تتذكري هذا في المستقبل يا خالتي انيتا.

وأدار وجهه نحو سوزان.

ـ ستبقين بعيدة عن ارمان دولان، هل هذا واضح؟ إنه فلاح.. وأنت لا زلت طفلة.

ـ ولكنني لست طفلة يا فرنسوا. وأنا اقول لك إن أرمان لا يظن بي هذا!

ـ أنا واثق إنه لا يفعل. ولكن مثل هذه المعرفة لا تعجبني.. ولن أتحملها.. هل تسمعين؟.

ـ أجل سمعت... ولكنني لا أفهم.

وحدّقت بمارغريت وكلّمتها بالإنكليزية:

ـ مارغريت ليست ضيقة التفكير. إنها شقيقتي ولا تظن أن من الخطأ التحدث مع ارمان. إنه لا يختلف عنا، إنه مثلك يا فرنسوا له ساقين وذراعين وجسد. إنه ليس مجرد مزارع، فهو يعمل في الكرمة مثلك.

وقال فرنسوا بحدة:

ـ اوه.. اخرسي.. أنت تتحدثين بالسخافات.

ـ ولكن هذا صحيح! إنه سيأخذني لقطاف الفطر على كل الأحوال.

ـ لن تذهبي!

ـ ولكن إذا أتت مارغريت معي هل بإمكاني الذهاب؟

ـ لقد قلت لا.. هل فهمتي خالتي انيتا؟

ـ أجل... موافقة يا فرنسوا.

ـ ماري روز؟

ـ أجل يا فرنسوا.

ـ مارغريت؟

وعضت مارغريت على شفتها، فكرة الذهاب لقطف الفطر لم ترق لها ولكنها كرهت أن تقول «نعم فرنسوا» كما فعلت الاخريتان، إنها

ليست واحدة من المعجبين به. لذلك بدلاً من الموافقة تماماً قالت:

ـ لا افهم لماذا كل هذه الضجة. قطف الفطر لا ضرر منه، أما بالنسبة لآل دولان، فهم محترمون، وتمتعت بوقتي في المزرعة يوم امس، والسيد دولان كان لطيفاً معي وأراني ماكنات الحلب وتوابعها. وكان الأمر مثيراً للاهتمام.

ورفعت نظرها إلى فرانسوا، وقد احمّر خداها:

ـ لن تستطيع أن تتوقع مني رؤية ما تراه حول كل صغيرة وكبيرة يا فرانسوا. أنا لست شقيقتك، وأفضّل أن أفكر بنفسي.

ونظر إليها بغضب، وتوقعت أن يرفع ذراعه ويشير إلى الباب ويأمرها بالخروج. ولكن بعدما تفرّس بوجهها لعدة ثواني قال:

ـ سأتناول القهوة في مكتبتي. خالتي انيتا، سوزان. ساتكلم معكما هناك بعد خمس دقائق.

وجاء دور سوزان لتقول له «أجل فرنسوا» وغادر الغرفة. وتساءلت مارغريت إذا كان الصمت الذي ساد بعد خروجه كان صمت من لا يوافق معها. ثم علّقت سوزان:

ـ فرنسوا يتمادى كثيراً بعض الأحيان. ومارغريت على حق... يجب أن تفكر بنفسها. إنها ليست جزءاً من العائلة.

وصنعت الخالة انيتا القهوة وحملت سوزان الفناجين إلى غرفة المكتبة وذهبت مارغريت للمساعدة في تكديس الصحون كي تنظفها ڤيوليت في الصباح، ثم اعتذرت وصعدت إلى غرفتها.

وهناك خلعت ما ترتديه وارتدت ثوب نوم عادي شفاف، ثم جلست على مقعد وأخذت تقرأ كتاباً. ولم تقرأ سوى بضع صفحات عندما سمعت قرعاً حاداً على الباب وصوت فرنسوا يقول:

ـ مارغريت.. هل لي أن أدخل؟

وبدأ قلبها يخفق بشدة وفكرت أن تتهرب منه، ولكنها تعرف تصميمه، وأنزلت ساقيها على الأرض ومررت أصابعها في شعرها:

ـ أجل.. أعتقد هذا.

استدار مقبض الباب، ودخل ووقف ينظر إليها، وتساءلت عما إذا كان يقلب خطط هجومه أم أنه يدرسها فقط. وتمنت بسخافة لو أنها ليست نحيلة لهذا الحد. ربما كان ينتظر منها أن تقف بدل الجلوس على المقعد تحدق به، وتقدم خطوة ووضع يده على حافة التعليقة الخشبية المقوسة المعلقة على الجدار. ووضع يده الأخرى على خصره.

ـ أريد أن أعرف تماماً قصدك من وراء أخذ تلك الطفلة إلى المزرعة يوم أمس؟ وأنا مدرك أن الخالة انيتا قد وضعتك في أجواء رغباتي. ولكن من الواضح أنك جعلت من الصعب عليها أن تصر على تمسكك بها.

ونظرت إليه بحدة، وتمنّت أن يتوقف خفقان قلبها وأن لا تشعر بأنها فتاة مذنبة. فمن المؤكد أن الخالة انيتا قالت إن فرنسوا يفضل عدم ذهاب سوزان إلى المزرعة ولكن هذا كل شيء. والجميع يعلم ماذا يعني تفضيل فرنسوا لشيء ما. لذا لا معنى للجدال حول هذا الموضوع. إضافة إلى أنها لم ترد توريط الخالة انيتا أكثر من اللزوم، لذا قالت:

ـ الفكرة كما تقول، كانت لطلب أرنب. وأظن أنك تعرف. إنه الأرنب الذي أكلته الليلة. ويبدو أنك تمتعت كثيراً به على الرغم من الشجار السخيف حوله.

واشتعل الغضب في عينيه، ولكنه قال بهدوء:

ـ كنت سآكله بنفس المتعة مساء الغد، ودون أن يجري شجار حوله، كما تدعينه، أيتها الأخت الجميلة.. وهذه هي النقطة المهمة.

لأنك أنت من أردتي زيارة المزرعة. أليس كذلك؟ بصراحة ظننت أنك قد نضجت على مثل هذه التصرفات الطائشة.

إذاً.. اللوم سيقع عليها! من وضع هذه الفكرة في رأسه؟ هل هي الخالة انيتا لحماية سوزان؟ أم سوزان لحماية نفسها؟ حسناً الأمر لا يهم. تستطيع تحمل اللوم. فغضب فرنسوا لا يعني شيئاً لمارغريت ماسترز، ومن المؤكد أنه لن يخبر أمها بهذا الخلاف بينهما! فقالت دون اكتراث:

ـ تستطيع ظن ما تشاء. ولكن إذا كنت تظن أنني فعلت هذا لمجرد إزعاجك فيجب أن تفكر ثانية. الحقيقة هي أن مزارعكم تختلف عن المزارع في انكلترا، وأردت التفرج عليها.

وشعرت بعدم الراحة من وقوفه وتحديقه بها، فوقفت بدورها، وسارت نحو النافذة لتنظر إلى الخارج. كان الظلام قد بدأ يهبط والنجوم بدأت بالظهور في السماء الحمراء.

وقال من خلفها:

ـ حسناً.. كما أشرت بنفسك من قبل.. ليس لي أي سلطة على ما تفعلينه. ولكنني لن أسمح أن تختلط سوزان مع ارمان دولان، إنه فلاح و....

ـ فلاح؟

واستدارت لتواجهه متابعة كلامها:

ـ وإن يكن؟ إنها مجرد كلمة. إنه من البشر. إنه انسان، كما قالت سوزان تماماً.. وأنت بالتأكيد قد لا ترغب بإلقاء التحية على فلاح. وهذا امر سخيف تماماً. وسوزان ليست طفلة...

ـ ارمان لا يقبل لنفسه أن يحني رأسه لتحية متواضعة. بالنسبة لي مهما قلت أنت أو هي أو أي شخص آخر، فإن سوزان لا تزال طفلة وستبقى طفلة إلى أن تنهي دراستها.

ـ اوه حقاً؟ أنت خارج زمنك ومتأخر! هل تظن أن مثل هذه الأفكار موجودة في باريس حيث تذهب أختي إلى المدرسة، فتاة في السادسة عشر هي بعيدة كل البعد عن أن تكون طفلة في هذه الأيام.

ـ قولي ما شئت. ولكن فتاة في السادسة عشر من عائلتي هي طفلة بحاجة إلى حماية. ولأسباب واضحة لي إذا لم تكن واضحة لك. وسوزان لن يكون لها أية علاقة مع ارمان دولان، ولن تخرج معه لقطاف الفطر، فلن يقتصر الأمر بينهما على هذا.

وضحكت مارغريت ساخرة:

ـ وقد يذهب الأمر إلى أبعد من قطاف الفطر دون أن يكون هناك ما يضر. إضافة إلى أن هناك شيء يدعى الصداقة العذرية. ايها الأخ الكبير. لماذا لا تبدأ بالايمان بهذا؟

وجدّقت به وأجابها على تحديقها. ثم فجأة ودون أن يكون لديها أية فكرة عما سيحدث، وجدت نفسها بين ذراعيه، قائلاً:

ـ هذا سبب عدم إيماني..

واحتضنها بقوة، ووحشية بين ذراعيه ثم نظر إلى وجهها المحترق بالدم. وقال:

ـ أنت امرأة وأنا رجل. ولا شيء تقولينه يغير هذه الحقيقة او واقع أنني أحس بالأمر. شيء ما يجذبنا لبعضنا، وهذا واقع الحياة. وقد تقاومين الجاذبية، وقد لا أستطيع أنا أن أفعل. وطالما نحن نقاوم لن يكون هناك عواقب، ولا خطر. ولكن هل تستطيعين القول إن ارمان دولان، الذي لم تخضع عواطفه الى أي ضوابط أو تعليم يستطيع أن يقاوم مشاعره نحو فتاة مغرية كسوزان؟ أو أن سوزان، الصغيرة والبريئة، والمتشوقة للإثارة، وقد أدركت بوضوح مدى انوثتها، لديها الرغبة أو الإرادة لرفض ما يفعله معها؟ أنا أعرف سوزان، وأنت تقولين إنها شقيقتك، ولكنها شقيقتي أنا أكثر منك. ولا تخطئي بهذا.

وأعرفها أفضل مئة مرة مما تعرفينها أنت...

لذا أقول إنها لن تذهب لجمع الفطر، وان الصداقة بينهما يجب أن تنتهي. وسيكون الأمر مؤسفاً لو حرمتها وحرمت نفسي بهجة مجيئها إلى هنا. أليس كذلك؟

ووقفت مارغريت تستمع، وتحاول السيطرة على نفسها، ولم تدري ما ستقول، ولكنها قالت:

ـ أنت تبالغ في حمايتها. لو كانت من ذلك النوع من الفتيات الذي تقوله عنها. فستقع بنفس المشاكل في باريس. عندما لا تكون أنت هناك لتضع القطن في أذنيها؟

وشعرت بأعصابها تتوتر، وأحست برغبة في رمي نفسها على السرير لتخبيء نفسها في الظلام، فقد أثّر بها عناق فرنسوا، وصدمها.. وجرحها، ووصل إلى أجزاء عميقة منها لم تكن تعلم قبلاً أنها موجودة. وشعرت بأنها ذليلة بشكل غريب. بطريقة ما كانت بريئة بقدر ما هي سوزان. وشعرت أن فرانسوا قد عاملها دون إنصاف. دون مراعاة القواعد، أية قواعد. ولكن لأنها انكليزية، وهو فرنسي.. فلن تعترف بذلك ولن تتركه يعرف أن الأمر مهم لها. من الجنون من وجهة نظرها أن يستطيع الإمساك بها واحتضانها بالطريقة التي فعل، ثم يتابع بهدوء مناقشة أمر سوزان. ولكن لو أنه يستطيع فعل هذا كذلك تستطيع هي. وتمنت لو تعود إلى انكلترا حيث تفهم الرجال هناك وتفهم مشاعرهم.. رجال مثل هنري جوردن. غير معقدين، نبلاء ومع ذلك بدا التفكير بهنري الآن مثير للضحك. ولأنها فكرت هكذا، شعرت بالخجل من نفسها، فهي معجبة بهنري كثيراً.. على الرغم مما تشعر به تجاه هذا الرجل.. فرنسوا دوقال..

واستدارت نحوه قائلة:

ـ سوزان شقيقتي، وليست شقيقتك، إضافة إلى أننا أناث. لذا لا

تجرؤ على القول لي إنك تفهمها أكثر مني. فأنت لا تفهمها!

ـ حسن جداً. ولكن تقبلي واقع أنني أفهم ارمان دولان و... دوافعه الشهوانية أكثر منكما معاً.

ولم ترد عليه. وسمعت الباب يقفل جيداً، ولكن دون عنف بعد أن غادر الغرفة. وغرقت في فراشها متحيرة. لماذا كان كل هذا؟ لقد دخل فرانسوا ليتهمها بأنها تقود سوزان نحو الخطر، ولكن هذا ليس صحيحاً. والزيارة للمزرعة كانت بسيطة. ولكن بالنسبة لفرنسوا لا شيء بسيط، ولم تستطع فهمه..

واكتشفت أنها كانت تضغط يدها على كتفها حيث ألقى ذراعه ليحتضنها.

☆ ☆ ☆

٥ ـ إنذار السيدة

على عكس ما توقعت مارغريت، فكل ما يتعلق بارمان، والذي تسبب بشجار عائلي، بدا وكأنه اختفى، ولم يعد يذكر ابداً في الأيام التي تلت. وكانت مارغريت قد توقعت بعض المضاعفات، بسبب رفضها أن تصطف إلى جانب فرنسوا، ولكن الخالة انيتا وماري روز تصرفتا معها تماماً كما كانتا من قبل. وفي الواقع، كذلك فعل فرانسوا، ولكنها كانت تحذر كثيراً من البقاء معه لوحدهما.

والتقت بمارك هازلنغ في أحد الأيام وهي تتنزه برفقة انطوانيت وأعادت له المال الذي تدين به. واعتذر لها عن التأخير في دعوتها لزيارة «لي شارم»، فقد قال إنه كان يعاني من الرشح. وإنه لم يستطع أن يتوافق مع مدام هوبرت بنوا. ولكنه وعد أن لا يتأخر في دعوتها. وتمنت مارغريت أن يكون صادقاً. فقد يفيدها أن يكون لها صديق من خارج العائلة. في الواقع كانت تفكّر فيما إذا كان من الأفضل لها أن تعود إلى بريطانيا، ثم تعود إلى فرنسا فيما بعد، عندما تكون أمها قد عادت من سويسرا.

www.elromancia.com

كانت غارقة بالتفكير في الموضوع عندما تلقت رسالة من هنري جوردن يقول فيها «أنت تعلمين ماذا تفكر والدتي بما عليك أن تفعليه يا مارج؟ عودي إلينا! واقول لك إنني موافق معها. فقد ذهبت إلى فرنسا خصيصاً لتري أمك. وتركتك فوراً لتذهب إلى سويسرا. لذا يبدو أن رحلتك فشلت. وأنا آسف لأنها بصحة غير جيدة، طبعاً، ولا أرغب في أن أكون متطفلاً، ولكن كان بإمكانها البقاء معك قليلاً لبضعة أيام. على كل الأحوال، لماذا لا تعودين؟ وتستطيعين دائماً أن تسافري ثانية، إذا أحببت. لقد أرحت ضميرك الآن، وقمت بما عليك. وأنا مشتاق إليك، وليس عندك فكرة كم أنا مشتاق».

ربما أن الجملة الأخيرة في الرسالة هي التي جعلت مارغريت تقرر. فهي لن تستطيع العودة. فلو أنها رجعت فسيستنتج هنري أشياء لم تقصدها. وستحاول والدته دفعهما للزواج. وهي هنا، على الأقل، تساعد في تربية الأطفال، كما أنها تعيش بشكل جيد ما فيه الكفاية، مع أن بعض الأمور كانت سلبية، فقد أصبحت على وفاق مع ماري روز وتقربت أكثر من سوزان. وتناست كل شيء حول ارمان، وليفرض فرنسوا النظام الذي يريده على سوزان، بدعم منها أو بدونه.

في إحدى الامسيات، خرجت سوزان وماري روز نحو الغابة لقطف الزهور، وطلبت سوزان منها أن ترافقهما، ولكنها رفضت لان عليها كتابة بعض الرسائل. ولكن بعد نصف ساعة من خروج الفتاتين قالت لها الخالة انيتا:

- يجب عليك الخروج لتنشق بعض الهواء النقي يا مارغريت. من الواضح أنك تعانين من الصداع. وأستطيع أنا العناية بالأطفال لوحدي. اذهبي للتنزه قرب الساقية حيث المكان هادىء وبارد.

ولم تكن مارغريت قد تنزهت قرب الساقية من قبل، ووجدت أن المكان جميل ومريح، وبارد. كانت بعض نساء القرية قد غسلن

الملابس في الساقية ونشرنها على الشجيرات الصغيرة لتجف. وجلست مارغريت على العشب قرب الساقية وأخذت تراقب الماء، تاركة صوت الماء المتدفق يريح أعصابها. ولكنها بعد فترة قصيرة أخذت تستعيد في ذهنها أشياء كثيرة حول فرنسوا. وتضايقت من أفكارها، فتركت الساقية وسارت نحو القرية. فقد أرادت أن ترى الناس لتمنع نفسها من التفكير بعواطفها تجاه فرنسوا. العودة إلى انكلترا وإلى هنري ليس هو الحل المناسب بالتأكيد. ولكن قد يساعدها لو أنها تقابلت مع مارك أكثر، لو أن جدته تسمح له بأن يدعوها لزيارة القصر، فهي واثقة أن نمط حياتها عند ذلك سيتغير. وفكرت بأن تقتحم «لي شارم» فجأة، وأن تدق الجرس فوق البوابة الخشبية المقوسة التي رأتها وراء البوابة الحديدية الكبيرة، وأن تسأل ما إذا كان مارك هناك. مثل هذا التصرف قد يمر دون أن يلاحظه أحد في بلدها، فالآباء هناك ليسوا متوحشين وكذلك الجدات. ولكن كيف ستكون النتيجة هنا؟ من المحتمل أن يحرج الأمر ماري روز وفرنسوا إذا علما بالأمر.. وقد يقول فرنسوا إن الانكليز لا أخلاق لهم.

ووصلت مارغريت إلى القصر ولم تكن قد قررت رأيها بعد، وبدت لها الطاولات والمقاعد خارج المقهى المجاور مغرية للجلوس عليها تحت ظلال الشجرة الكبيرة. وقررت أن تتناول كوباً من الليموناضة، ويكون بذلك أمامها وقت للتفكير، بأن تقتحم القصر أم لا.

ولكنها لم تصل إلى نتيجة، مع أن الأمر أغراها كثيراً، وجزء من الاغراء كان سببه أنها تريد إلقاء نظرة على ايلين موران، والتي قد تكون هناك أو لا تكون....

- بونجور يا أختي الجميلة.

وقطع صوت فرنسوا حبل تفكيرها.

- هل تنتظرين احداً.. أو أستطيع الانضمام اليك؟

ـ بكل ترحاب.. كيف وجدتني هنا؟

ـ أوه.. لم أكن أفتش عنك، إنها صدفة فقط. لقد كنت عائداً إلى المنزل وشاهدتك هنا.

واستدار ليطلب شراباً، ثم عاد ورفع حاجبيه وقال:

ـ أترغبين شيئاً لك؟

وهزت رأسها بالنفي، وبعد لحظات قال لها مبتسماً:

ـ اعتقدت أن الفرصة سانحة للتحدث إليك بهدوء.

ـ حقاً؟ وماذا فعلت لأستحق هذا؟

ـ هيا الآن لا تكوني مشككة بي. لن أقوم بإلقاء درس عليك. لا بد أن بيننا أشياء مشتركة حتى ولو كنا أحياناً نختلف... لقد كنت تتحاشيني متعمدة منذ تلك الليلة التي اختلفنا فيها حول طريقة تربية سوزان. أليس كذلك؟

ـ ربما.. ولكن هذا شيء من المؤكد أنني لا أنوي التحدث عنه. فقد قلت كل ما عندي.

ـ وكذلك أنا.. لقد تلقيت رسالة من سويسرا اليوم. صحة الوالدة تتحسن باستمرار وهي متشوقة لإخبارنا. وأظن أنها ستكون سعيدة لو كتبتي لها رسالة.. أي شيء يرضيك... دون أن تحمل أي شكوى!

ـ انا لم آتي الى هنا للبحث عن اخطائكم.

ـ أعتذر.. لقد عبّرت عما أريد قوله بشكل سيء. سأحاول من جديد... هل أنت سعيدة معنا هنا؟

وتلاقت عيونهما، وأحست مارغريت أن وجهه يحمل نفس التعبير الذي كان يحمله ليلة عانقها في غرفتها، وتساءلت هل يذكر هذا يا ترى؟

ـ أوه.. أجل.. أنا سعيدة.. على وجه العموم... فالخالة انيتا لطيفة معي دائماً، وهذا جيد، بعد محاولتك جاهداً تصويري بشكل

سيء بعد حادثة الذهاب إلى المزرعة.. ألم تفعل هذا؟

ـ لا تتحدثي بسخافات! أنت من وضعت نفسك في وضع سيء. فأنت تجادلين كثيراً وسريعة الغضب.

ـ شكراً لك.. هل هناك إطراء آخر منك، لقد غمرتني!

ـ ألا توافقين أنك كثيرة الجدال؟

وضمت مارغريت شفتيها بقوة، ربما هي كذلك في المدة الأخيرة، ولكن هذا ليس من طباعها، ليس عندما يكون أمامها أشخاص متعقلين تتفاهم معهم. ولكن فرنسوا كان متصلباً ومتغطرساً.

ـ ليس بإفراط.. وليس أكثر منك على كل الأحوال.

فضحك وقال:

ـ حسناً، لن نتجادل حول هذا. ولكن لنتابع الحديث حول سعادتك المتواضعة. أرجو أن تكوني قد وجدت ماري روز متفاهمة معك. مثلها مثل الخالة انيتا؟

ـ اوه أجل.. إنهما لطيفتان معي.

ـ ما عداي؟ صحيح أن فرصي معك ليست جيدة، ولكن هذا نتيجة للانطباعات القديمة...

ـ لقد ظننتني فتاة مثيرة للمشاكل. ولكن هل هذه الانطباعات لا يمكن أن تمحى؟ ألا يسمح لي أن أبدأ من جديد بعد كل هذه المدة؟

ـ يمكنك هذا.. لولا أنك دائماً تسارعين إلى العراك. وبهذا تفسدين كل فرصك.

ـ أنت تبالغ.. فأنت تثيرني وعليّ أن أدافع عن نفسي...

ـ هل هكذا تنظرين إلى خلافاتنا؟ إذاً عليّ أن أعيد النظر. قد يريحك أن تعرفي أن هناك من يناصرك هنا.

ـ سوزان؟

ـ لا.. بل ماري روز... لقد اعترفت لي في إحدى الأمسيات.

ـ اعترفت لك بماذا؟

ـ اعترفت بالتوتر والعداء المرير بينكما عندما أتيت إلى هنا بعد زواج والدينا وقالت إنها راجعت ما مرّ، ولا تلومك أبداً على ما أظهرتيه من عداء حتى اضطررنا لإرسالك إلى انكلترا. واعترفت بأنها كانت تضايقك بقساوة... حول لهجة كلامك.. ثيابك.. نقص الذوق عندك ونقص الثقافة، حتى أشياء ذاتية استطاعت تذكرها. هل هذا صحيح؟

ـ أعتقد هذا. ولكن الفتيات بهذا السن يومها يمكن أن يكنّ مزعجات ومتوترات. وأنا أفضّل نسيان الأمر. وأنا بالتأكيد لست فخورة بما فعلت. لم أكن راغبة يومها في المجيء إلى فرنسا، وشعرت أنني أنتمي جسداً وروحاً إلى الجانب الإنكليزي من العائلة، وكنت أتوقع أن تكرهوني. علاوة على أننا جميعاً كنا متوترين نوعاً ما، بسبب الموت، والزواج وكل التغييرات التي حصلت لتجمع العائلة. وكنت أنت بعيد عن كل هذا، هنا في الريف.

وكان فرنسوا يصغي إليها وهو يفكر، يراقب وجهها وهي تتكلم، ثم قال ببطء:

ـ لم أكن بعيداً كما تتصورين. كنت في السادسة والعشرين، وكنت ناضجاً، ومهتم بأن ينجح زواج أبي. وعندما أتيت إلى باريس، كان واضحاً أن وجودك لم يكن يسّهل الأمور. لقد كانت أمك مستاءة منك وأعصابها متوترة، وأنت كنت سمكة في حوض ليس لك. لذا دفعت أبي إلى إرسالك إلى انكلترا. ربما كانت هذه غلطة، ولكنني وقتها كنت أستطيع القول إنني محق. ولكن كان بإمكاني سحبك إلى هنا لفترة ما.. وأعلّمك الفرنسية، وأترك للخالة انيتا أن ترعاك خلال أزمتك. عندها تصوري كيف كانت ستختلف الأمور! لكنت أصبحت فتاة باريسية رائعة.

ـ أنا سعيدة كما انا.. شكراً لك. وأحب أن أظل انكليزية. ولكنني بالطبع سأكتب إلى أمي واخبرها كم أتمتع بإقامتي هنا، ولن أذكر لها المسائل التي نختلف عليها.

ـ ولا أنا سأذكرها.. أرجوك اعذريني، سأشتري بعض السجائر ثم اذا كنت مستعدة نعود معاً بالسيارة إلى المنزل.

وراقبت مشيته المستقيمة والطريقة التي يتحرك بها جسده، وشعرت بالخجل من نفسها فأدارت وجهها إلى الناحية الثانية من الشارع، وشاهدت سيدة كبيرة السن، أنيقة الثياب، ارستقراطية المظهر تمشي بخيلاء وتكبّر تشيران إلى أنها إما واحدة من أثرياء مزارعي الكرمة هنا، أو أنها باريسية اشترت منزلاً هنا لترتاح فيه. وعندما عاد فرنسوا كانت المرأة قد اختفت.

ولم تكتشف مارغريت أن هذه السيدة هي مدام هوبرت بنوا إلا في اليوم التالي. فقد تم فجأة دعوتها لزيارة «لي شارم» وأوصل لها الدعوة مارك عندما صادفها خلال الصباح.

وسارعت الى المنزل لتعلن عن الأمر، من أجل ترتيب أمر مساعدة الخالة انيتا خلال غيابها. وكانت ماري روز مرتدية ثيابها استعداداً للخروج عند مصفف الشعر في «ديجون» وسألت ماري روز مارغريت:

ـ أتحبين أن تأتي معي يا مارغريت؟

ـ كنت أود هذا كثيراً ولكنني تلقيت دعوة للذهاب إلى «لي شارم» بعد الظهر.. لقد دعاني مارك هازلنغ.

وعضت ماري روز شفتها وظهر على وجهها تعبير الفضول، ولكنه تلاشى فوراً وقالت:

ـ إذاً يجب أن تذهبي.. سوف تتمتعين بزيارتك هناك أكثر من قضاء يوم كامل في ديجون. أظن أن هناك أشياء كثيرة مشتركة بينك

وبين مارك بما أن كلاكما انكليزي..

ـ كلانا نصف إنكليزي ونصف فرنسي.

وأقامت سوزان ضجة كبرى عندما سمعت الخبر.

ـ أظن أن الخالة انيتا سوف تتوقع مني البقاء هنا لرعاية أولاد هنريت، وأنا لست خالتهم الحقيقية حتى! أسأل نفسي لماذا أتيت إلى هنا في هذه العطلة.

ـ كان بإمكانك الذهاب إلى «اونورين» في نيس.

ـ لا.. فقد كنت أعلم أن مارغريت آتية. وفرنسوا أرادني أن أكون هنا. وها هي تصادف هذا الانكليزي وستمضي كل وقتها تخرج معه.. وشعرت مارغريت فجأة بفقدان صبرها مع سوزان فقالت لها:

ـ أوه يا سوزان! لا تكوني بهذه السخافة! سأمضي معه فقط بعد ظهر واحد!

ـ لا يجب أن تخرجي معه أبداً، فلديك صديق في انكلترا. على كل حال لن أبقى في المنزل. سأذهب على الدراجة الى «لي فلوران» وأزعج فرنسوا بهذا.

فقالت لها الخالة انيتا:

ـ لن تستطيعي هذا يا عزيزتي.. فرنسوا لن يكون هناك.. إنه ذاهب إلى ارميت اليوم. هناك اجتماع للمؤسسة، ثم سيذهب ليأتي بايلين موران. فستقيم مع جدتها خمسة عشر يوماً.

ـ هذه المدام هوبرت بنوا!.. إنها تعطي الأوامر للجميع.. سأذهب معك يا ماري روز إلى ديجون.. انتظريني لأغير ثيابي!

وتنهدت ماري روز. وأسرعت سوزان نحو المنزل من الحديقة حيث كانوا يجلسون. وقالت:

ـ يا لها من طفلة! اخشى أن تكون مدللة أكثر من اللزوم.

وابتسمت لمارغريت معتذرة:

ـ سامحيني على قولي هذا يا مارغريت، ولكن الصغير في العائلة دائماً مدلل. وأعلم هذا، لأنني كنت صغيرة العائلة لفترة طويلة.

وقالت مارغريت على مضض أن من الأفضل أن تبقى في المنزل، ولكن الخالة انيتا لم تقبل:

ـ لا تقلقي على الأطفال.. انطوانيت طفلة جيدة.. أما بالنسبة للصبي.. فهو لا يشكل مشكلة طالما إنه لا يحبو. فرنسوا يقلق عليّ كثيراً. بإمكانكن الخروج جميعاً والتمتع اليوم. وسأكون مرتاحة.

«لي شارم» كان بالتأكيد مكاناً قديماً مثيراً للإعجاب. داخله، خلف الأبواب الحديدية الضخمة، كان هناك حديقة كبيرة مليئة بالورود والنباتات المتسلقة، والبتونيا والجيرانيوم، بألوان حمراء وزهرية. كما كان هناك ياسمينة صفراء متسلقة ذكّرتها فوراً بانكلترا. واستقبلها مارك وقطعا معاً الحديقة.

وعندما دخلا المنزل تطلعت من حولها باهتمام. وقال لها مارك:

ـ هناك قبو تحت القصر، له سرداب يصل إلى الكنيسة، ولكنه مسدود الآن. ولكنه كان يستخدم منذ قرون بعيدة أيام الاضطرابات الدينية، هكذا تقول جدتي، ربما آخذك إلى تحت لتشاهديه إذا كنت مهتمة. ولكن قبل كل شيء عليك مقابلة الفتاة العجوز.

وصعدت السلم العريض الجميل مع مارك إلى غرفة ضخمة مرتفعة السقف مفروشة باثاث أثري رائع. وهناك كانت مدام هوبرت بنوا تجلس على أريكة مذهبة، وعرفت مارغريت فوراً أنها المرأة التي رأتها في ساحة القرية في اليوم السابق.

وبعدما قدمها مارك للمدام قالت لها:

ـ إذاً أنت قريبة آل دوفال الإنكليزية. هل تتكلمين الفرنسية يا آنسة.

ـ أجل يا سيدتي.. قليلاً..

ـ قليلاً! أظن أنك متواضعة قليلاً! أنا أريد التحدث معك. اجلسي. يجب أن نتعارف. مارك.. اذهب واشغل نفسك بشيء آخر. بينما نتحدث أنا وهذه الفتاة.

ـ أفضل أن أجلس هنا بهدوء وأستمع يا جدتي... ماذا ستقولين لمارغريت؟ أريد ان أتأكد أنك لن تحذريها مني. لقد قلت لها إنني حالياً فنان مفلس.

ـ أوه لا! وكأن هذا يزعجني! كلاكما انكليزيان وهذه صداقة مناسبة...

يا إلهي.. هذه السيدة تكره الإنكليز. وشعرت مارغريت أن هذه السيدة المسيطرة لها قدرة غريبة على تدبير الزيجات.. وأدركت ان هذا القصر قد يجتذب فرنسوا، الذي ما من شك أنه يملك المال الكافي لإصلاحه. جدران هذا المكان القديمة في حالة سيئة. والأرضية القديمة والتي كانت يوماً جميلة بدأت تتآكل. وأغطية المقاعد المطرزة كانت مهترئة مثلها مثل السجاد على الأرض، وبدت الستائر وكأنها متماسكة بفعل غبار السنين فقط.

ولكن المدام هوبرت بنوا نفسها، كانت تبدو جميلة ومسرفة على ملابسها، وترتدي الخواتم الماسية، وبروش من الزمرد عند رقبة ثوبها. وبعد أن اختفى مارك مهدداً بأنه سيعود بعد ربع ساعة وإذا لم تسمح له بالدخول سيحرق المنزل، قالت لها:

ـ والآن! لنسمع شيئاً عنك مدموزيل. ما هي قرابتك مع عائلة دوڤال؟

ـ أنا لست قريبة لآل دوڤال أبداً، في الواقع.

ـ لا؟.. إذاً هيا.. اوضحي الأمر.

ـ انا شقيقة سوزان. أنت تعرفينها.

ـ هل هذا ممكن؟ لا أستطيع هضم الفكرة. أنت انكليزية بشكل

واضح بينما سوزان فرنسية. آه.. تلك الطفلة! إنها مدللة كثيراً! إنها مجنونة... ربما تعنين أنك نصف شقيقة لها.

ـ لا مدام.. نحن من نفس الأبوين. وأمنا الآن متزوجة من مسيو دوڤال، كما تعرفين، والدنا انكليزي. وتربيت أنا في انكلترا مع جدتي بعد وفاة والدي. ولكن جدتي توفيت مؤخراً.

ـ وأتيت إلى فرنسا لتساعدي نفسك تحت اسم دوڤال.

ـ استميحك عذراً، لم أفهم!

ولكن مدام هوبرت بنوا لم تكرر ملاحظتها. بل سألت:

ـ هل أتى بك إلى فرنسا الشعور القوي بالعائلة؟ أم أنه لم يبق لديك شيء؟

ـ أنا مكتفية تماماً. فنحن في انكلترا لا نركّز زيادة على الأمور المالية. والدي ترك لي بعض الأملاك. وجدتي تركت لي المال. وليس لديّ مشاكل مالية أبداً، مدام. هل هذا يجيب على سؤالك؟

ـ إذاً لقد أتيت للزيارة فقط.

ـ أجل.. أساساً لرؤية أمي.

ـ هكذا إذاً؟ ولكن امك في سويسرا.. ولا أظن أنك راغبة في البقاء طويلاً... فالفرنسيون والانكليز لا يتفقون جيداً. لم يحدث هذا ولن يحدث. ولن يتعلموا أبداً محبة بعضهم. قد يحاول بعض الأفراد أحياناً، ولكن المسألة مسألة عدم توافق في الأساس. وأنا أفهم هذه الأشياء. فابنتي تزوجت من انكليزي، والد مارك. ولم نكن نطيق بعضنا.

ـ ولكنها كانت تتحمله.

وقالت المدام بتوتر ملحوظ:

ـ لست متعودة على الفتيات اللواتي يظهرن وقاحة مع الأكبر سناً.

ـ انا آسفة يا مدام.

ولم تعد المرأة إلى ذكر موضوع زواج ابنتها. بل قالت:

ـ لا أستطيع التصديق أن عندك دماً فرنسياً في عروقك. مظهرك، أخلاقك، كلاهما انكليزي تماماً. أنت تشبهين والدك، كما أعتقد.

ـ أجل.

وتحركت في مكانها قلقة، فلم تكن تتمتع بجلوسها هكذا تتعرض للاستجواب والانتقاد، وعلمت تماماً أن مدام هوبرت بنوا لم تحبها، ويبدو أن صداقتها بمارك غير مرحب بها. وتساءلت، ما هو الهدف بالضبط من هذا الحديث؟

ـ والآن... لقد تعرفنا ببعض، ولا مانع عندي أن تلتقي بمارك.

ـ شكراً لك مدام.. لم اكن أدرك أن الأمر يحتاج لموافقتك.

ـ أنا أريد أن أعرف مع من يختلط أفراد عائلتي. وأنا لا أوافق على اختلاط الشبان كيفما اتفق، دون النظر إلى أصلهم وعائلاتهم. والزواج في رأيي لا يجب أن يترك للظروف، وهو يتوقف على التعارف.

وضحكت مارغريت قائلة «مدام.. أرجو أن لا تظني أنني ومارك...».

ـ أنا لا أظن شيئاً عنك وعن حفيدي. وأنا لا أدّعي أنني أفهم الإنكليز. ولكن أجد من واجبي أن ألتقي بالفتاة التي تجعل مارك يهتم بها.

ـ أنا لم أجعل مارك يهتم بي.

ـ أوه.. ولكنك أنت مهتمة به. طبعاً! أنت صغيرة وجذابة، وغير متزوجة. ومارك شاب جميل. ولا تظني لأنني أكبر منكما بنصف قرن فأنا لا أعرف شيئاً عن الاهتمام بين الشبان والشابات. فأنا أعرف ولم أنس بعد.

ونظرت بدورها إلى الساعة ثم مالت إلى الأمام وركزت نظرها على مارغريت.

ـ لن أتدخل بعلاقتك مع مارك.. فلكم أنتم الانكليز طريقتكم الخاصة... أما بالنسبة لفيليب وايلين فأنا مهتمة بهما، أتعرفين أن ماري روز وفيليب يتوقعان إعلان خطوبتهما قريباً؟

ـ لقد سمعت عن هذا.

ـ وتعلمين ايضاً أن فرنسوا وايلين من المتوقع أن يتزوجا؟

ـ لا.. لم أسمع شيئاً عن هذا الموضوع.

ـ لا؟.. إذاً صدقيني عندما أقول إن هذا الاقتران مخطط له. ولم تجرؤ مارغريت على سؤالها من خطط هذا، وشعرت بنبضاتها تتسارع. لم تكن متأكدة ما إذا كان فرنسوا يرغب فعلاً في الزواج من ايلين موران. وإذا كان قول سوزان إنه لن يتزوج منها له أي معنى. ولكن تبقى مسألة «الفتاة الأخرى» التي ذكرتها سوزان، ولاحظت أن من الممكن أن تكون الأخرى متزوجة، وفي هذه الحالة قد يقرر الزواج بايلين.

وضمت المدام أصابعها مع بعضها ونظرت إلى الخواتم الماسية اللامعة ثم رفعت رأسها وقالت:

ـ لقد بدأت الثمار تنضج، وقريباً سيحين وقت القطاف هل تدركين أهمية ما أقول.. في هذه المرحلة الحاسمة الآن؟ للأسف أنت مثل مارك، انكليزية، ولن تفهمي ما معنى الاتحاد العائلي في فرنسا، ولكن انتبهي أن تسيري بطريقة غير ملائمة بين الكروم حتى لا تقع العناقيد الناضجة أو تتعثري بما جمع منها بكل حذر.

ـ أنا آسفة يا مدام، ولكنني أخشى أنني لم أفهم ما تعنيه.

ـ لا؟.. أنت تفهمين تماماً ما أقول.. لقد كنت البارحة تمتّعين نفسك مع فرنسوا في ساحة القرية. أليس كذلك؟

ـ في الساحة؟

وأدركت أن المدام تشك أن لها نوايا تجاه فرنسوا. إن هـذا أمر مضحك؟ ولكن لأجل السماء، ماذا يعني تناول كوب من القهوة معه، إن الأمر كله سخيف... وشعرت برغبة مجنونة لتضحك.

ـ وهل تظنين يا مدام.. أن وجودي قد... يزعج فرنسوا؟

ـ لا أظن مثل هذا الشيء. ولكنني أظن أنك تفكرين بإزعاجه. أنت فتاة جميلة، أجل، ولكنك على الأقل لا توافقين ذوقه. إنك انكليزية. وينقصك المقدرة والحساسية.

وعضت مارغريت على شفتها. ما هذا الرأي الذي كونّته عنها هذه المرأة في خلال ربع ساعة. وكم من غير الملائم أن تخبرها به بهذا الشكل؟ وتابعت المرأة قولها:

ـ لا.. أنت لست مدعاة للخوف. أنت لست أكثر من غيمة صغيرة تمر في السماء وتهدد بالمطر.. ولكنها أخيراً تتطاير مع الريح.. ولكنني لا أحب الغيوم في سمائي، وأقول لك بصراحة، من وجهة اهتمامي بصغيرتي ايلين، الحساسة، والسريعة التأثر. أجل، لهذا السبب وحده، ابتعدي عن فرنسوا مدموزيل. ولا تحاولي إقحام نفسك بحياته، ولا تتطفلي عليه.

وحدقت بها مارغريت دون أن تتكلم. إذاً هـذا هو الهدف من حديثها كله! إنها تحذرها بأن تترك فرنسوا وشأنه، ومن دون أدب ايضاً. وأحست بالراحة لدق مارك على الباب، ودخوله إلى الغرفة وسؤاله:

ـ هل انتهى الحديث؟ وهل بقيت سمعتي سليمة؟

وأجابته مارغريت «سليمة تماماً» ووقفت على قدميها وهي تبتسم، لقد كانت راغبة في لقاء جدته، وهي لا تهتم الآن أبداً فيما لو لم تعد تراها مطلقاً. هناك فارق بين النساء الفرنسيات وبعضهن الآخر..

الخالة انيتا لطيفة جداً ولكن هذه المرأة لا تطاق. لمجرد أن رأتها تتناول فنجان قهوة مع فرنسوا في الساحة، فقد قررت أنها تحاول إغوائه، أو شيء سخيف مماثل. لم تكن تحب أن يقال لها أن لا تتطفل عندما لا تكون لديها النية بهذا إطلاقاً. وكم تمنت لو أنها تلتقي بايلين الآن، وترى بنفسها من هي هذه الفتاة الحساسة السريعة التأثر، وكيف تبدو! وتصورت في ذهنها امرأة تقارب الثلاثين، مدجنة، مطيعة، تتمتم «نعم فرنسوا» «لا فرنسوا» وتتكمش خوفاً عندما ينظر إلى امرأة أخرى. إنها نوع سيء من الزوجات لفرنسوا.

وأدخلها مارك إلى غرفة صغيرة مشمسة وقال:

ـ هذا مرسمي.

كان قد رتب على الجدار خمس أو ست لوحات زيتية، وأشار اليها بعصبية، ووقفت مارغريت وتفحصتها، ألوان ناعمة تتحدث عن صيف الريف، ولون الكرمة الأخضر، وزرقة السماء، وزرقة سفوح التلال المعتمة، وبدت الأشجار وكأن الريح تتلاعب بها، وانتشرت الطيور في السماء، وأخيراً لوحة لزهرة دوار شمس ترفع وجهها نحو الشمس، التي صورها وكأنها دوارة شمس أيضاً.

ـ لا أعرف ما أقول.. لن أدّعي أنها رائعة، او أي شيء مماثل، ولكنني واثقة أن لك موهبة عظيمة، دوار الشمس تبدو وكأنها تشعر، تشعرني وكأني أرغب في البكاء.

ـ أنت أفضل من شاهد لوحاتي وأعجب بها، وسأهديك لوحة «دوار الشمس» سأصنع لها اطاراً في «ارميت».

ـ هذا كرم زائد منك يا مارك.. ألا أستطيع... الدفع...

ـ لا.. ولكن ماذا كانت جدتي تقول لك؟ ليس عني على ما ارجو؟ أحياناً أظن أنها تفضل أن تقوم بتقديمي على طريقتها.. وأن تزوجني فتاة جميلة ومستقيمة، وأن توظفني وظيفة جيدة أستقر بها..

وتفضل أن يكون هذا في انكلترا..

- لم تكن تتكلم عنك. كانت تتكلم فقط عني.. وعن علاقتي بآل دوڤال، وأرادت أن تعرف لماذا أتيت إلى فرنسا... ثم بدأت تتحدث عن تربية الكرمة..

- تربية الكرمة؟ يا إلهي! أرجو أن تكوني قد اهتميت بالموضوع.. إنها فتاة عجوز غريبة الأطوار، أليست كذلك؟.

- أجل.. غريبة الأطوار.

كانا في الحديقة يتناولان عصير البرتقال بعد ذلك بوقت قصير عندما توقفت عربة أمام مدخل القصر، وعرفت مارغريت أن السيارة هي لفرنسوا، وعلى الرغم منها شعرت بتسارع دقات قلبها. إذاً ستقابل ايلين أخيراً، وترضي فضولها! مع أنها كانت تعلم أن الفضول ليس وحده الذي يدفعها لرؤية الفتاة التي ارتبط اسمها باسم فرنسوا دوڤال.

☆ ☆ ☆

٦ - ليس أخيها أبداً!

ايلين. كانت فتاة قصيرة، شعرها أسود وجميلة، وتبدو شابة صغيرة، ولا تبدو أكبر سناً من سوزان، مع أن مارغريت علمت فيما بعد أنها في التاسعة عشر.

وابتسمت لها ايلين وتمتمت بأنها سمعت عنها من فرنسوا، وردت مارغريت أنها ايضاً قد سمعت عنها منه أيضاً، وهذا شيء لم يكن صحيحاً أبداً.. ولمجرد النظر إلى هذه الفتاة، يشعر المرء أنها فعلاً بحاجة إلى الحماية، وشعرت مارغريت بأن كلمات المدام عن ابنتها «ابنتي الصغيرة، سريعة التعرض للأذى» لها المعنى المطلوب تماماً، ونظرت إلى عيني فرنسوا الباردتين الساخرتين وأوشكت أن تصرخ في وجهه: أيها الوحش! لماذا تترك هذه الفتاة الرقيقة تعلّق آمالها عليك، وهناك دائماً امرأة أخرى في حياتك...

على كل حال.. لم تكن تنوي إيلام هذه الفتاة أبداً، وعندما طلبت منها ايلين أن تدخل معها إلى المنزل أجابت معتذرة «لا..

www.elromancia.com

شكراً كنت على وشك الذهاب. فالخالة انيتا تتوقع مني مساعدتها بالأطفال. ويجب أن أذهب الآن.. حقاً:

وتجاهلت فرنسوا تاركة إياه لايلين.. والتفتت إلى مارك ورفعت له خدها ليقبلها، وسترى ايلين بنفسها أن ليس لديها النية في التفكير بفرنسوا!

ـ لقد أمضيت وقتاً مرحاً.. وما قلته لك في المرسم... أنا أعنيه!

ـ أنت تعنين...

وسارعت لمقاطعته.

ـ اوه.. أنت تعلم يا شيري.

ثم وضعت ذراعها بذراعه وودعت ايلين وفرنسوا وسارت باتجاه البوابة مع مارك.

ـ بماذا كنا نتكلم.؟ وما هذه السرعة المفاجئة؟

ـ كنت أتكلم عن رأيي بعملك بالطبع.. هذا كل شيء. وأنا مستعجلة لأنني.. أوه.. لان ايلين سترى جدتك وأنا آسفة يا مارك، أعلم أنها شخصية محترمة وعجوز رائعة، ولكنني تصادمت معها ولا أريد أن انضم اليهم، وأتأخر عن المنزل.. وسأحب الذهاب معك إلى ارميت لصنع الإطار للوحة التي ستهديني إياها، ولكن أرجو أن تسمح لي بدفع ثمن الإطار.

ـ لا تخافي.. أنت صديقتي...

ـ إذاً لا تظهر مودتك لاصدقائك بهذه الطريقة، أو لن تستطيع كسب معيشتك كفنان، تصور فقط كم سيكون ثمن هذه الرسمات يوماً عندما تصبح شهيراً.

ـ وهل تظنين أنني سأصبح شهيراً؟

ـ بالطبع!

ـ أنت فتاة رائعة!

ووضع ذراعه على كتفها وضمها إليه قليلاً، وشاهدت من فوق كتفه سيارة فرنسوا تبطيء سيرها على بعد خطوات منهما. وأطلّ فرنسوا برأسه من النافذة قائلاً بصوت بعيد عن الود:

ـ الأفضل ان تأتي معي إلى المنزل بالسيارة يا مارغريت، بما أنك قلقة هكذا على الخالة انيتا.

وهمست لمارك «أرجو أن لا أكون ارتكبت ذنباً يسيء إلى سمعة العائلة هذه المرة».

ـ ستنجين منه.

وابتسم لها وهو يفتح لها باب السيارة ويساعدها على الركوب. وبعد عدة ثواني وقد لاحظت تجهمه قالت متسائلة:

ـ لماذا تبدو غاضباً؟ هل فعلت شيئاً مرعباً؟ أم أنك غير راضٍ لأنك اضطررت لترك ايلين؟ لم أطلب منك تركها، كنت أنوي الذهاب إلى البيت سيراً.

وتجاهل ما قالته، وبحركة حادة أدار السيارة عن الطريق الرئيسي ليدخل ممراً وعراً إلى جانب الساقية.. فصرخت به، مدركة أن هذا موقف عدائي منها ولكنها كانت غاضبة لأنه لم يعرها التفاتاً:

ـ أين أنت ذاهب؟ الخالة انيتا تتوقع قدومي...

ـ إذاً على الخالة أن تنتظر.

وتوقف في ظل شجرة كبيرة واستدار ليواجهها، وسألها بحدة:

ـ هل تقيمين علاقة مع مارك هازلنغ؟

ورفرفت مارغريت عينيها مرتين، ثم صرخت باستنكار:

ـ لا...!

ـ لا؟.. ولكنني لاحظت انطباعاً مختلفاً... ولم أكن أدري أنك معتادة على زيارته في «لي شارم».

ـ وهل عليّ أن أقدّم حساباً عن كل حركة أقوم بها؟

ـ لا تثوري هكذا!

ـ أنا آسفة، لم أقصد أن أثور، ظننت أنني هادئة.. أنت دائماً تعمل من الحبة جبلاً. ألست هكذا؟ أنا لست معتادة على زيارة مارك في القصر. في الواقع اليوم استدعتني مدام هوبرت بنوا...

ـ استدعتك؟

ـ أليست هذه الكلمة المناسبة؟ ربما عليّ أن أقولها بالفرنسية...

ـ وماذا كانت تريد؟

ـ اوه.. لتقابلني.. وتقول لي إن الزيجات لا تتم اعتباطياً بين العائلات المهمة في فرنسا، وأشياء مثل هذا.. إنها مدبرة زواج عجوز رائعة...

ـ كل النساء مدبرات زواج.. وهل وافقت أم لا؟

ـ عن ماذا تتكلم؟

ـ عنك وعن مارك طبعاً. أليسَ هذا ما تحدثت عنه. لو أنكما كنتما تتصرفان بالطريقة التي رأيتكما بها فمعها حق أن تسمعك مثل هذا الكلام.

ـ حقاً! إن ما أفعله ليس من شأنها. وأنتم الفرنسيون تدهشونني، فأنا ومارك نميل لبعضنا كصديقين فقط.

ـ أهكذا تبقين ضميرك مرتاحاً؟ أليس هناك من ينتظرك في انكلترا؟ لا بد أنك ستسمعيني ثانية اسطوانة الصداقة البريئة، ولكنك تخدعين نفسك إذا ظننت أنك ستترددين لصديقنا مارك وتبقى علاقتكما بريئة. إن له أم فرنسية، وأنت تعلمين هذا..

ـ وماذا تعني بأتودد إليه؟

ـ أوه.. التعلق بذراعه، الهمس في أذنه، التحدث بغموض معه، النظر إلي عينيه وكأنك...

ـ حقاً! أنظر اليه! هذا امر لا يصدق!

ـ أنت من لا تُصدق يا شيري... عينا الفتاة قد تدفعان الرجل إلى عمل أي شيء. إنهما اروع سلام لدى المرأة. وأنت لك عينان جميلتان حقاً، يا ملاكي... ولست غبية لدرجة أن لا تعرفي مدى قوتهما... لقد لاحظت هذا بنفسي من قبل.

واخذ لونها يحمّر ببطء وهما يحدقان ببعضهما، عيناه.. ماذا تفعلان بها وهما تغوصان فيها هكذا؟ وجرت رعدة خلال جسدها، والتقطت أنفاسها وقد أحست بذراعه تلتف حولها بخشونة وتجذبها نحوه. واحست بنعومة حرير قميصه على وجهها.. كيف لرجل أن يضم فتاة بهذه العاطفة الفجائية هكذا؟ ومن لا شيء.. من الهواء... أصبح هناك شيء يزحف ما بينهما وهو يضمها دون وعي، وكأنه لا يستطيع منع نفسه. وكأنه مأخوذ تماماً بما يفعل. والشيء الفظيع أنها هي أيضاً قد بدأت تنجرف معه أيضاً.. ولم تعد تريده أن يتوقف.

وبعد لحظات تراجع وقال بصوت غريب:

ـ العناق في السيارة، هذا ليس من طبعي أبداً. أنت تثيرين بي اسوأ ما فيّ من خصال يا مارغريت ماسترز.

وأدار السيارة وقال وهو يغيّر محول السرعة:

ـ أراهن على حياتي أيتها الأخت الجميلة أن لا شيء يسمى بالصداقة البريئة.

ـ إنها موجودة عندي... ولكن ليس لك.. فأنا لا أشعر بأي نوع من الصداقة نحوك...

ـ لا تتابعي كلامك.. اتركي الأمر كما هو. وإلا ستخطئين بعد لحظات، شيري.. الأفضل أن تفكري بي كأخ لك. فزوجة أبي تحب أن ترانا عائلة واحدة متكاتفة وسعيدة.. ما رأيك؟

ولم تجب مارغريت، وعلمت أنها لن تستطيع أبداً أن تفكر به كأخ

لها. ونظرت إلى هذا الوجه الوسيم. وشعرت برعدة في داخلها، لماذا عانقها يا ترى؟ فقط ليبرهن لها أن لا وجود لصداقة بريئة بين رجل وامرأة، لو أن الرجل اختار العكس؟ وما هو شعوره الحقيقي تجاه مارغريت ماسترز؟ وتنفست بعمق.. شيء واحد مؤكد لديها.. إنه لا ينظر إليها كأخت له...

ووصلا إلى المنزل ليجدا أن ماري روز وسوزان قد عادتا من ديجون وبينما حضرت ماري روز عشاء انطوانيت، جلست سوزان في غرفة الجلوس تعطي جاك قنينته على مضض. ووجدت مارغريت الخالة انيتا في المطبخ وعرضت عليها المساعدة. ولكنها قالت لها إن كل شيء على ما يرام. ولم يدخل فرنسوا إلى غرفة مكتبته كما كانت تأمل، بل تمدد على الأريكة العريضة في غرفة الجلوس يراقب سوزان وهي تطعم الطفل. وبدا فرنسوا مشغولاً عنها وغير مدرك لوجودها، وبدا حنوناً بشكل غريب وهو يراقب فتاة السادسة عشر والطفل، ونظرت إليه مارغريت وشعرت بوخز حاد في صدرها. ورفعت سوزان رأسها إليه وابتسمت، ثم استدارت إلى مارغريت.

ـ هناك رسالة لك في غرفتك يا مارغريت، إنه مغلف كبير بني اللون، من صديقك في انكلترا. هل يكتب لك رسائل غرامية مثيرة؟ فهذه ثاني رسالة له خلال ثلاثة أيام. أعتقد أنه يريدك أن تعودي إلى ما بين ذراعيه.. وربما إذا بقيت هنا طويلاً سيلحق بك...

وقاطعها فرنسوا بحدة:

ـ اصمتي يا سوزان.. ألن تكبري وتتعلمي الاحترام بدل الثرثرة بشؤون الناس بطريقة طفولية؟ لقد بدأت أفقد صبري معك!

وقفزت سوزان على قدميها، وأصبح وجهها غاضباً وقالت:

ـ اوه.. لماذا تهاجمني دائماً.. منذ أن وصلت مارغريت إلى هنا؟.. ألا أستطيع فعل شيء دون أن أكون مخطئة!

وضمت جاك اليها بعد أن بدأ الصياح بصخب عندما خرجت الرضاعة من فمه، ووضعته بين يدي مارغريت.

ـ خذيه... أنا... أنا.

وخرجت من الغرفة وقد ملأت الدموع عينيها. ونظرت مارغريت إليه وكأنها تتهمه قائلة:

ـ لقد جرحت شعورها بهذه الكلام. لم تقل شيئاً يزعجني، لقد جعلت المسكينة تبكي.

ـ سوزان تستطيع ذرف الدموع متى شاءت.. إنها تحب الدراما. اما كونها طفلة مسكينة، ألا تقولين لي دائماً إنها ليست طفلة؟ ولكن طفلة أو غير طفلة، يجب أن تتعلم الأخلاق، بدل الثرثرة بتفاصيل حياة الناس الخاصة.

ـ ليس هناك شيء خاص بأن أتلقى رسالة من هنري، يبدو عليك أنك تظن أنك تعرف كل شيء عنه!.

ـ بل أعرف أكثر عن مارك هازلنغ.

وضمت شفتيها بغضب، ولم تقل شيئاً. لم ترد أن يتطور الحديث بينهما ليدور حولها. وجلست على الكرسي الذي كانت تجلس عليه سوزان وتابعت إطعام الطفل. وسمعت فرنسوا يطلق صوتاً يشبه الضحك ولكنها لم تلتفت إليه، وبعد لحظة نهض وسار نحو الباب، وعندما بلغ الباب قالت «آمل أن تكون ذاهباً للاعتذار من سوزان».

ـ أخشى أن يكون املك خائباً، تستطيع أن تتغلب على غضبها دون مساعدتي...

وفكرت للمرة الثانية في ذلك اليوم كم هو متوحش!

في وقت آخر من الاسبوع ذكرت الخالة انيتا أن فرنسوا اقترح إقامة حفلة غداء.

ـ لم نفعل الكثير لتسليتك يا مارغريت، ومع أنك شقيقة سوزان،

إلا أنك ضيفة أيضاً، وزائرة لبلدنا.

كان هذا صحيحاً، وفكرت مارغريت أنها قريباً ستغادر هوشيه ليزانج. آخر رسالة من سويسرا قالت إن والدتها تستعيد صحتها بسرعة وتأمل أن تعود خلال اسبوعين.. اسبوعين! تغادر بعدهما مارغريت بورغاندي وفرنسوا والخالة انيتا وتنضم إلى والدتها في باريس. ولم تكن أكيدة بأنها سعيدة أم لا لأن وقت مغادرتها قد بدأ يقترب. وبعدما اطّلع فرنسوا على محتويات الرسالة انفرد بها وسألها:

- هل تتمنين أن يسرع الاسبوعان القادمان بالانتهاء يا اختنا العزيزة؟

ولم تدر ما تجيب، فقد ظهرت في حياتها أشياء كثيرة، أشياء ظنت أنها لن تنتهي.. وأجابت:

- أنا قانعة بالبقاء هنا حتى تتحسن صحة والدتي. فلماذا تسأل؟

فابتسم بسخرية وقال:

- أحاول فقط أن أعرف ما إذا كنت تواقة للبقاء هنا وإلى جوار آخر معجب بك، أو أنك تستعجلين الوقت لترجعي إلى معجبك القديم.

- ولا واحد منهما يدخل في حساباتي. لقد قلت لك إن ليس لديّ أي تفكير بالزواج.

- وأنا لا أصدقك، فكل الفتيات يفكرن بالزواج، منذ أن يكن في المدرسة.

- أخشى أنك تعيش في غير هذا الزمان، فالزواج لم يعد من أحلام اليقظة.

- ربما لا. ولكن إن لم يكن الزواج هو حلمك المفضل، يجب عليك أن تضعي مكانه طموحاً آخر.. فما هو يا ترى؟ لا يبدو لي أنك فتاة تطمح لمستقبل عملي. ولم تظهري أي دليل على حبك للسفر، ولا أرى أنك سعيدة بإقامة علاقة مع رجل دون أن يكون هذا قانونياً.

وهزت مارغريت كتفيها واستدارت مبتعدة. فهي تريد الزواج

وإنجاب الأطفال، ولكنها لن تقول له هذا...

وها قد بدأت الآن التحضيرات لحفلة غداء لتكريمها، وسألت الخالة انيتا «من سيكون الضيوف؟» وأجابتها بأنهم ايلين وفيليب موران، وابن خالتهما الانكليزي مارك هازلنغ، وتابعت تحضير لائحة الطعام، وبدأت مارغريت تقدم الاقتراحات، أما ماري روز، التي كانت تقطف الورود فلم تشارك معهما.

وذهبت مارغريت الى فراشها تلك الليلة وهي تشعر بالإثارة، ليس بسبب حفلة الغداء، بل لأنها ستقابل ايلين ثانية، وأحست بأن هذا أمر غريب. لأنها تريد أن تقرر بنفسها كيف هي مشاعر فرنسوا تجاه هذه الفتاة، فتصرفاته نحوها يجب أن تكشف لها عن شيء. فإذا كان مهتماً بها ورقيقاً معها عندها ستستنتج أن آراء سوزان عنهما لا معنى لها. وكان نومها ليلتها خفيفاً جداً. وعندما استيقظت في الصباح الباكر، والضوء يكاد يظهر خفق قلبها، فماذا أزعجها يا ترى؟.. بعض الأصوات...

وجلست في فراشها ترهف السمع. هل هذه أصوات أقدام في الردهة أو على السلم؟ هل من الممكن أن تكون انطوانيت الصغيرة قد استيقظت وسببت ببعض الأذى؟ فقد قامت الطفلة مرة بزيارة إلى المطبخ وقلبت وعاءً كاملاً من الحليب على الأرض.

وخرجت مارغريت من فراشها وارتدت روبها الأزرق، دون أن ترتدي شيئاً في قدميها، وخرجت إلى الردهة.. ولم تجد أثراً لأحد.. ولا صوت. ونزلت بهدوء على الدرج، وعندما وصلت الى الأسفل سمعت صوت تسلل في المطبخ... إذاً فهذه انطوانيت!

وعندما وصلت إلى المطبخ اكتشفت أن سوزان هناك، مرتدية الجينز وقميصاً أسود طويل الأكمام... وحذاء طويل! وكانت تحضّر لنفسها كمية من الخبز وكوباً من العصير.

واحمّر وجهها بالذنب وهي تلتفت لتجد مارغريت هناك، فسألتها مارغريت:

ـ ماذا تفعلين هنا بحق السماء يا سوزان؟ وأين تنوين الذهاب، بهذا الحذاء الطويل؟

وشربت سوزان نصف كوب العصير قبل أن تجيب وقالت بعداء:

ـ سأقول لك يا مارغريت، حتى ولو أنني لست مضطرة. فهذا ليس من شأنك، فأنا ذاهبة إلى الحقل لأجمع الفطر...

وحدّقت بها مارغريت، وقد لاحظت نظرة الذنب في عينيها، وقالت لها:

ـ أنت ذاهبة مع ارمان دولان.

ـ أجل.. فهو يعرف أين يوجد أفضل الفطر. لقد قال لي هذا ذلك اليوم في المزرعة.

ـ وهل كنت تقابلينه إذاً.. وهل دبرتما هذا؟

ـ كم تبدين فضولية ومستنكرة! مثل فرنسوا تماماً. ولكن ما الضرر لو أنني كنت أقابله؟

وفتحت مارغريت فمها لتجيب ولكن سوزان أسرعت بإكمال كلامها:

ـ على كل، أنا لم أره، لذا لا تبدأي بإلقاء الدروس عليّ. لقد أرسلت له رسالة يوم أمس مع ڤيوليت أطلب منه ملاقاتي. وسيأتي..

وابتلعت مارغريت ريقها بعصبية، فقد أحست بشيء مقلق حول الطريقة التي قالت بها سوزان «إنه سيأتي» إنها تنظر إلى ارمان وكأنه أكثر من رفيق ستذهب معه لجمع الفطر، وتذكرت ايضاً الطريقة التي قالت سوزان بها، يوم كانتا عائدتان من المزرعة «ارمان مثير.. وأنا احس بأحلى المشاعر في جسدي» وعضت على شفتها وقالت:

ـ لا أظن أن عليك الذهاب.. فهذا ليس ضرورياً.. فالخالة انيتا

تنوي شراء الفطر من القرية.. إضافة إلى أن فرنسوا سيغضب، فأنت تعلمين ما قال.

وضحكت سوزان ساخرة:

ـ أووف! وما يهمني إذا غضب فرنسوا؟ أنا معتادة على هذا. ولا أنوي أن أتركه يعاملني كطفلة طوال حياتي. وأنا لا أشعر بأنني أصغر من ايلين البالغة تسعة عشر سنة مع أنها لا تبدو هكذا، وفرنسوا لا يعاملها كطفلة مع أنها تطيع كل أوامره، ولكنني سأفعل ما أريد. وماذا ستفعلين بهذا الخصوص؟ هل ستوقظين فرنسوا وتخبرينه.؟

وهذا هو بالضبط ما يجب على مارغريت أن تفعله، وهي تعرف هذا. ولكنها تعرف أيضاً أنها لن تستطيع.. إذ لا تستطيع أن تنحاز إلى جانبه ضد شقيقتها. فقالت لها:

ـ لا... بالطبع لن أفعل. بل سأطلب منك فقط أن تستعملي عقلك ولا تذهبي.. ارمان هو...

ـ ارمان ماذا يا مارغريت؟ لقد قلت سابقاً إن لا ضرر من الذهاب معه، ولا أرى سبباً لتغيير رأيك الآن، إنه يعجبني، وأريد الذهاب معه لجمع الفطر. فقد سئمت من رعاية الأطفال والخروج معهما بنزهة، واللعب بالتنس. كل شيء سيكون على ما يرام. قولي لفرنسوا إذا أردتي عندما ينزل لتناول الإفطار، وسأذهب الآن، وإلا سأتأخر.

لم يكن أمام مارغريت خيار سوى أن تتركها تذهب. على كل حال، ماذا يضر ذهابها؟ وتذكرت بقلق ما قاله فرنسوا من أن ارمان لن يستطيع مقاومة فتاة جذابة مثل سوزان. ولكن.. هل يمكن لهذا أن يجري في الحقول وعند الصباح الباكر؟ من الممكن بما أن شقيقته تعمل عند آل دوڤال فإنه قد يفكر كثيراً قبل أن يورط نفسه. وعادت إلى غرفتها.

وشعرت براحة كبيرة عندما عادت سوزان قبل ... الإفطار بقليل.

ولم تكن ماري روز قد نزلت بعد، ولكن الباقين كانوا قد جلسوا الى المائدة، وبما أن من المفترض أن تكون سوزان ما زالت في الفراش، لم تقل مارغريت شيئاً قد يثير انتباههم.

ثم دخلت سوزان، حذاءها موحل، خداها متوردان. تحمل كيساً صغيراً كانت تعلم مارغريت أنه مليء بالفطر. ووضعته على الأرض بانتصار وتحدي، وقالت «هذه مساهمتي في الحفلة.. إنه بعض الفطر الطازج الجميل».

وحدّق بها فرنسوا، وضاقت عيناه.

ـ ماذا كنت تفعلين بحق الشيطان؟ لقد ظننت أنك لا زلت في الفراش.

ـ أنا؟ لقد استيقظت منذ ساعات! ألم تقل لك مارغريت؟ فكّرنا أن نفاجيء الخالة انيتا ببعض الفطر الطازج، ولكن مارغريت قررت أن الوقت مبكر جداً لمغادرة الفراش.

وأحست مارغريت بالدم يتصاعد إلى وجهها. ولم تكد تصدق أذنيها. سوزان تحاول إشراكها بما فعلت.. بينما كانت هي معارضة لها! ولم تفكر لحظة أن فرنسوا سيصدق بأن سوزان خرجت لوحدها.

ونظر إلى مارغريت نظرة غاضبة وقال:

ـ لو قالت ما كنت ستفعلين لأخذت احتياطاتي ومنعتك أيتها الحمقاء الصغيرة. لقد كنت مع ذلك الفلاح، بالطبع.

ـ أوه يا فرنسوا، أتمنى أن لا تستمر في تسمية ارمان بالفلاح بهذه الطريقة، إنه لطيف جداً، ويعجبني.

وتحركت مستندة إلى الحائط لتخلع حذاءها الموحل. وقالت الخالة انيتا «إنه بالتأكيد يعرف الريف تماماً.. ويعرف بالضبط أين يجد أكبر حبات الفطر.. إنها رائعة، ألا تستطيع شم رائحتها؟ ألا تجعل لعابك يسيل؟».

وتجاهل فرنسوا كلامها وقال:

ـ لو أنك أصغر عمراً يا سوزان، لوضعتك فوق حجري وضربتك ضرباً موجعاً على قفاك.

ـ ولكنني لم أعد صغيرة، أليس كذلك يا فرنسوا؟

ووقفت تنظر إليه متحدية، ولم تكن مارغريت لتلومه لو أنه وقف وضربها رغم أنها في السادسة عشر.

وللحظة بدا أنه سيفعل هذا، ووقفت سوزان تنتظر، وهي تبدو قصيرة القامة وصغيرة جداً دون حذائها، تبتسم وكأنها تريد منه أن يفعل.. هل هذا ما تريده حقاً؟ هل تريده أن يضربها؟ وأحست مارغريت بتقلص في معدتها لهذه الفكرة، ولكنه لم يتحرك عن كرسيه، بل ابتلع غضبه بجهد كبير وقال ببرود:

ـ إذا كنت لن أملك السلطة عليك بعد الآن يا سوزان، فلن تأتي إلى هنا في العطلة مرة ثانية. وأعدك بهذا، لذا احذري من تحركاتك في المستقبل.

ـ أوه يا فرنسوا.! هذا ليس عدلاً! وأمي لن تسمح بهذا... لقد فعلت هذا لأجلك! ايلين المسكينة تحب الفطر، ألا تريد ان تسعدها؟

ـ ايلين المسكينة سترضى بأي شيء هنا.

قال هذا بانفعال، وحبست مارغريت أنفاسها لشيء لاحظته في لهجته، بدا وكأنه قاسي الفؤاد تماماً، وكان مجرد ذكر ايلين يضجره. والأكثر، أنها كانت واثقة أنه لا يشير لا إلى الفطر ولا إلى أي نوع من الطعام، بل كان يشير إلى معاملته لها.. وإلى إعجابها به. آه.. انه رجل دون قلب! ستكره أن تتورط عاطفياً معه بأية طريقة كانت. ومع ذلك فهما متورطان عاطفياً، ولكن هذه العاطفة هي مجرد تنافر، وحمداً لله، إنها ليست الحب!

وأنهى فرنسوا وجبته، وقهوته، وتجاهل سوزان ومارغريت، وأخذ يناقش مع الخالة انيتا تفاصيل فكرة الغداء في الحديقة.

ـ ڤيوليت ستساعدني في إخراج الطاولة.. إنها فتاة قوية.

فيما بعد، كانت مارغريت ترتب غرفة نومها عندما دخل عليها. ووقف ويداه على خصره يراقبها وهي ترتب أغطية السرير. ثم قال:

ـ انت تؤثرين بشكل سيء على شقيقتك الصغيرة، بأفكارك الغريبة حول البراءة، أيتها الأخت العزيزة. كان عليك على الأقل الذهاب معها.

وحاولت مارغريت إخباره أنها لم تكن تعرف شيئاً عن خططها إلا في وقت متأخر، ولكنها قررت أن لا تفعل، إذ لم ترد أن تقول شيئاً عن سوزان يسبب المزيد من المشاكل لها.

ـ أوه.. أنت تثير ضجة حول لا شيء. لقد عادت إلى المنزل سالمة، ومن المؤسف إفساد سعادتها.

ـ هناك أنواع من السعادة يا عزيزتي، ومن هذه الأنواع ما له تأثير مرير بعد انتهائه. ولا أريد لسوزان أن تختبر ذلك النوع من السعادة وهي لا تزال صغيرة. ولا تنظري إليّ هكذا، فأنت تعرفين تماماً ما أعنيه. لقد أفهمتك هذا، بما أنك لم تستطيعي فهمه لوحدك، إن شقيقتك ليست بعيدة عن الإثارة، ولا ارمان دولان كذلك. إنه شيطان، إنه مختلف عن باقي الفتيان في عائلته، ولكن سوزان معجبة به..

وتركت مارغريت السرير، وتحركت نحو طاولة الزينة ترتبها، وكرهت فرنسوا لأنه يتكلم هكذا، فقد كانت متأكدة أن سوزان فتاة رقيقة وطبيعية، ولكن مليئة بالحيوية قليلاً، ورأسها مليء بالأفكار الرومانسية، ومن الفظاعة ان يلّون هذه الأفكار بسخريته وأوهامه.. وقال لها بعد صمت قليل:

ـ أحذرك، إذا لم تتعاوني معي في ضبط تصرفات سوزان، وتذكري أن هذا لمصلحتها، فلن أتردد في الطلب منك مغادرة منزلي.

واستدارت لتواجهه، وهي تتنفس بغضب.. إنه لا يطاق!

ـ وأنا كذلك.. لن أتردد أبداً بالذهاب من هنا يا ابن زوج أمي.. كما أنظر أنا إلى الأمر، أنت تحاول تسميم براءتها، ولا أريد أن أتعاون معك بهذا.

ـ إذاً لا تتعاوني مع ارمان دولان...

قال هذا بخشونة وغادر الغرفة.

بعد هذه المواجهة، لم تعد مارغريت في حالة نفسية تسمح لها بالتمتع بالحفلة ذلك اليوم، مع أن سوزان وفرنسوا كانا يتصرفان بشكل عادي. وشعرت بالغضب من سوزان لتوريطها ومن فرنسوا للومها، ومن نفسها لأنها اتخذت موقفاً بدأت تشك بصحته. كانت تعلم في قلبها بأنها لا تريد مغادرة منزل فرنسوا، لا من أجل أمها فقط، بل من أجلها هي. وقد تستاء أمها لحصول خلاف جديد مع العائلة حول مارغريت، إضافة إلى أنها قد بدأت تحب العيش هنا، مع أن السماء وحدها تعرف لماذا...

وبدأت حفلة الغداء بتناول الشراب، ثم جلس الجميع إلى الطاولة التي وضعت في الظل قرب المنزل، وكانت مغطاة بغطاء مشغول بالكانفا يدوياً، وفي وسطها آنية للزهور مليئة بالأزهار البرية التي جمعتها ماري روز من الغابة القريبة. وجلس فرنسوا على رأس الطاولة، وايلين إلى جانبه وسوزان إلى الجانب الآخر، والخالة انيتا في الطرف الآخر محاطة بماري روز ومارك، بينما جلس فيليب ومارغريت في مواجهة بعضهما عند منتصف الطاولة، وبهذا كانت مارغريت في الوسط ما بين مارك وايلين.

وبعدما قدم الطعام، وجاء دور الدجاج والفطر، اعترفت ايلين بخجل أنها تحب الفطر، وانفجرت سوزان بالضحك وأخفت ضحكتها بيدها وقالت:

ـ أوه.. لا تثيري موضوع الفطر يا ايلين.. فرنسوا غاضب مني لأنني ذهبت لوحدي لاجمعها.. ألست كذلك يا فرنسوا؟

وتمنت مارغريت، التي كانت توجه اهتمامها لمارك، أن تقول لشقيقتها أن تصمت، وتساءلت لماذا لم يقل فرنسوا شيئاً، بل تركها تثرثر كما تشاء. وبالنسبة لايلين كان مؤدباً ولطيفاً معها، وهذا كل شيء. وبدت الفتاة بوضوح أنها تخشاه قليلاً. وكشف التعبير البريء في عينيها عندما كانت تصغي إلى ما يقوله، إنها تنظر إليه كنوع من الآلهة. ولاحظت مارغريت، أن قطاف الثمار مع ايلين اصبح بالفعل جاهزاً. ولكن هل سيتزوجها حقاً؟ إنها من النوع الذي لا يثير ضجة في وجهه، مهما فعل معها، حتى ولو كان له عشيقة، مثلاً... وتوصلت تدريجياً إلى قناعة بأن الفتاة الأخرى، لو كان لها وجود، لا بد أنها متزوجة، وهذا هو التفسير الوحيد للسرية ولواقع أن فرنسوا لا يزال عازباً.

وخرجت من أفكارها عندما قال لها مارك:

ـ أنا أحاول استعارة سيارة جدتي لنتمكن من الذهاب إلى «ارميت» لنصنع الإطار للّوحة يا مارغريت. ألن تأتي معي؟ أستطيع الذهاب يوم الثلاثاء، أيمكنك هذا؟

ـ أجل طبعاً.. سأذهب معك.

فيما بعد، وعند تناول القهوة، عند الطاولة الصغيرة، لاحظت مارغريت أن ماري روز وفيليب صامتين. ولم يكونا يتصرفان كاثنان سيصبحان قريباً خطيبين، وبدا فيليب ضجراً، بينما كانت ماري روز مهتمة اكثر بمارك الذي لم يتكلم معها أبداً. وتركت الجماعة ولحقت

بالخالة انيتا إلى الداخل لتسألها ما إذا كان هناك شيء تساعدها به، فأجابتها.

ـ لا يا عزيزتي.. ستقوم ڤيوليت بكل شيء. وأنا سأذهب إلى غرفتي وأرتاح مع الأطفال. وانتم أحرار في التسلية كما تشاؤن.

وعندما عادت مارغريت إلى الخارج، كانت ماري روز ومارك يتحدثان معاً، ويبدو عليهما، بطريقة ما، أنهما مذنبان. فرنسوا وفيليب كانا مستغرقان في نقاش ما، دون شك حول زراعة الكرمة، والفتاتان تجلسان وهما تستمعان، دون الانتباه لبعضهما.

ووقفت مارغريت مترددة، أي من الفريقين ستنضم إليه. ثم اقترحت ماري روز اللعب بالكروكيت.

ما تبقى من بعد الظهر مرّ بسرعة، وأخذ الضيوف بالمغادرة ورافقهم البقية للوداع عند البوابة. وما كاد الضيوف يختفون حتى تقدمت سيارة رينو قديمة وتوقفت قرب البوابة وخرج منها ارمان دولان.

واحمرّ وجه سوزان وضحكت من خلف يدها وقالت:

ـ لقد أتى ليأخذ ڤيوليت، لقد وعدني بهذا.

ونظر إليها فرنسوا نظرة فولاذية!

ـ فلينتظرها هنا في الخارج، أما أنت، فاركضي إلى الداخل، كلكم... تحركوا الآن، أو سأستخدم القوة.

وتمتمت سوزان «خنزيرا» ولكنها دخلت وكذلك فعلت ماري روز. ولكن مارغريت لم تفعل. وبقيت حيث هي. إنها انكليزية عنيدة ولن يأمرها فرنسوا بشيء وكأنها إحدى شقيقاته، إضافة إلى أنها تريد إلقاء نظرة أخرى على ارمان دولان وتقرر لنفسها ما إذا كان شريراً بقدر ما يقوله فرنسوا عنه.

وسار فرنسوا إلى الشارع، وكأنها غير موجودة، وبدأ يتحدث إلى

المزارع الشاب، الذي اتكأ على باب سيارته بكسل. وفكرت مارغريت في نفسها لا بد أنه يقول له أن يترك سوزان وشأنها. في الواقع كان ارمان جميل المنظر بطريقة قاسية وغامضة. هناك شيء من الوقاحة فيه. وعاد إلى ذاكرتها كيف كان يقف قريباً جداً من سوزان في المزرعة، وجسده مائل، خصره متمايل، ورأسه منحنٍ فوق رأسها بينما كانت هي تضحك له. وها هو الآن مقطب وينظر إلى فرنسوا بطريقة عدائية غاضبة. ثم فجأة استدار فرنسوا، بعدما قال ما يريد قوله، واتجه نحو مارغريت. وكان يبدو وسيماً جداً، ولكن غاضباً جداً، وأحست مارغريت بالرعدة تسري في جسدها. وقال لها بحدة:

ـ ألا زلتي هنا؟ قلت لك أن تدخلي..

ـ أعلم أنك قلت هذا. ولكنني لا أريد أن أدخل. كنت أريد أن.. أقول لهذا الولد إننا تمتعنا بالفطر. أرى أنك كنت توجه له الإهانات. وكل ما فعله أنه ساعد سوزان بجمع الفطر.

وأمسكها فرنسوا من ذراعها بوحشية.

ـ تبدين واثقة من نفسك كثيراً، ولكن إذا أردتي معرفة الحقيقة، فقد اعترفت سوزان بأنه عانقها.

ـ أوه حقاً يا فرنسوا؟ وهل هذا مخيف لهذه الدرجة؟ أية فتاة لم يعانقها أحد وهي في السادسة عشر؟

وجذبت ذراعها منه، وتجاوزته سائرة نحو الشارع، وكانت ترتجف، ولكنها لم تكن تنوي أن يلاحظ فرنسوا هذا، وكانت مصممة.. مصممة أن تتحدث مع ارمان، ولتثبت لفرنسوا أنه يبالغ في حمايته لسوزان وأن ارمان دولان هو شاب مسالم لا ضرر منه مثله مثل أي شاب في مثل عمره.

وكان ارمان قد أشعل سيكارة، وراقبها وهي تقترب، من خلال عينيه السوداوين النصف مغلقتين، وابتسامة متراخية على شفتيه.

واجبرت مارغريت نفسها على النظر إليه مباشرة، نظرة متفحصة طويلة، وأن تجيب على ابتسامته بابتسامة عريضة، وقالت:

ـ أوه ارمان.. أريد أن اقول لك كم كان الفطر لذيذاً. لقد تمتعنا به كثيراً. لطف منك أن تأخذ شقيقتي لتجمعه.

واتسعت ابتسامته، وتمتم شيئاً لم تستطع فهمه فقالت مترددة:

ـ أرجو معذرتي، لم افهم ماذا تقول، فلغتي الفرنسية ليست جيدة.

وطافت نظرته عليها، وشعرت شعوراً رهيباً بأنه يعرّيها بهذه النظرة، ثم قال ببطء وحذر:

ـ أحب أن آخذك يوماً لجمع الفطر.. وأفضّل وقت المساء..

وما تبع هذا من كلامه لم تفهمه تماماً، ولكنه كان يكفي لأن يجعل وجهها شاحباً.. وبجهد كبير نظرت إليه ثانية وقالت ببرود:

ـ أخشى أنني لم أفهم عليك.. ولكن لا يهم.. شكراً لك ثانية.

وتركته بسرعة، أذناها تشتعلان بالاحمرار، وركبتاها تكادان لا تحملانها. ولراحتها، لم يكن فرنسوا موجوداً في الحديقة، ولم تدخل إلى المنزل، بل وقفت في الظل، محاولة جمع شتات نفسها، والتخلص من شعور القرف والغثيان في معدتها.

الأشياء التي قالها ارمان... الطريقة التي نظر بها إليها... جعلتها تشعر وكأنها قد تمرغت بالتراب، مع شعور قوي بالخجل. أوه.. يا إلهي! كم تتمنى لو أنه لا يتحدث بمثل هذه الطريقة مع شقيقتها الصغيرة! أو أن ينظر إليها بتلك... الطريقة الداعرة.. هل هذا ما تدعوه بأنه «أحلى المشاعر» تشعر بها في جسدها؟ إذاً ما كانت تشعر به سوزان لم يكن أبداً غير مضر.

أجل.. من دون شك فرنسوا على حق! وسوزان بحاجة ماسة إلى الحماية، من نفسها ومن هذا الفلاح، قبل أن تقع الكارثة. وها هي تعلم الآن، وهي التي كانت ترفض تلقي الأوامر منه، انها في

المستقبل، ستتعاون معه بالكامل.. لا بسبب أنها لا تريد مغادرة منزله.. بل من أجل حماية سوزان...

☆ ☆ ☆

٧ ـ لماذا لا ترحلين؟

تلك الحادثة الصغيرة، كانت فاتحة علاقة مختلفة تماماً ما بين مارغريت وفرنسوا، مع أنها لم تلاحظ ذلك إلا في وقت لاحق.

تلك الليلة في الفراش، حاسبت نفسها وتوصلت على كره منها إلى استنتاج بأن فرنسوا كان على حق تماماً عندما قال بإنه يعرف سوزان مئة مرة أكثر منها. فهي لا تعرف سوزان حقاً ولا تفهمها، وكانت مشغولة بمناكدة فرنسوا حتى أنها، بكل صدق، لم تفكر كثيراً بمصلحة شقيقتها. مع ان الفكرة من مجيئها إلى فرنسا هو بناء علاقة جيدة مع عائلتها وعائلة دوفال الذين يعطون أهمية كبرى لحياتهم العائلية. ولكن ما هذه الفوضى التي رمت نفسها فيها؟ بالطبع كانت تساعدهم في تربية الأطفال، ولكن في كل صداماتها مع فرنسوا، تصرفت وكأنها طفلة مدللة، مصممة على تسجيل نقاط فوز عليه. ولا بد أنه الآن مقتنع أن رأيه بها، المرتكز على تصرفاتها الماضية، له ما يبرره تماماً، ومرة أخرى لديها دافع لتخجل من نفسها.

www.elromancia.com

والحقيقة، عندما تمعن التفكير بها، أن عداءها الشخصي لفرنسوا، مرتكز ايضاً على ما مضى وانتهى منذ زمن. وبكلمات أخرى، لم تكن أفضل منه عندما يتعلق الأمر بنسيان الماضي. وقبل أن تغفو، كانت قد عزمت على التفكير جيداً قبل أن تشك في دوافع فرنسوا أو تتخذ موقف العداء من أي شيء يقوله أو يفعله. وأن تتصرف، واقعياً، مثل شخص ناضج منصف في تفكيره كما تظن نفسها. وهذا، كما أدركت، يعني أن تعترف لفرنسوا أنها كانت مخطئة، ويعني أن تعتذر له، وهكذا ستفعل... ستفعل ولو قتلها ذلك.

ولكن الأمر لم يقتلها في الواقع. وعندما بدأت به ثبت أنه ليس عملاً بغيضاً أبداً.

اثناء تجولها في الحديقة، في الأمسية التالية، استطاعت أن تختلي بفرنسوا لوحدهما لبضع دقائق عندما عاد إلى المنزل من عمله، وبعدما أوقف سيارته في الكاراج تقدمت منه مباشرة.

- فرنسوا...

- نعم؟

كان يسير باتجاه المنزل، ولكنه توقف لينظر إليها متسائلاً، وصدمها أن وجهه قد أصبح مألوفاً لديها بشكل لا يصدق. وعندما التقت عيناهما شعرت بتسارع غريب في نبضاتها. شيء ما في طريقة نظره إليها، شيء بدا جديداً، دافئاً، حميماً، ذا معنى، اجفلها حتى أن نفسها تسارع. وتذكرت اتهاماته بأنها تغوي مارك بمجرد النظر إليه. وها هو الآن يفعل الشيء نفسه لها...

ومد يده وأمسك بمعصمها وقال:

- حسناً؟ ماذا تريدين قوله لي يا عزيزتي؟

وابتلعت ريقها بصعوبة، وبجهد كبير تمالكت نفسها وقالت:

- أريد فقط أن أقول... أنا آسفة بخصوص يوم أمس.. لأنني

كنت بلهاء. فأنت محق تماماً حول ارمان.. وأعترف بهذا. إنه لا ينفع أبداً لأن يكون رفيقاً لسوزان وأعدك أنني لن أشجعها بعد اليوم أن تراه. لذا لن يكون عليك أن تبعدها.

واشتدت قبضة أصابعه على معصمها.

- إذاً.. أنت ايضاً لا تريدين أن أبعدك من هنا... وأنت لست غير مهتمة كما كنت تدعين؟

وهزت رأسها، ثم نظرت إليه، محدقة بتفاصيل وجهه الذي أثارها منذ أيام كما لم تـ.. بإثارة مثلها في كل حياتها، مع أنها لم تكن مستعدة لتعترف بهذا.

- لا.. لا أريد أن أبتعد عن هنا يا فرنسوا..

وفوراً تساءلت لماذا اعترفت هكذا له، ولنفسها.

- أمر غريب حقاً! وأنا ايضاً لا أريدك أن تبتعدي.

صوته كان منخفضاً وهناك رجفة غريبة في نبرته. ثم سحب يده عن معصمها فجأة وقال:

- هل تسليت اليوم؟ هل شاهدت مارك هازلنغ؟

- لا.. ولكننا سنلتقي يوم الثلاثاء. سيقدّم لي هدية إحدى لوحاته وسنذهب إلى «ارميت» لنصنع لها إطاراً.

- تهنئتي لك. أرجو أن تكون تستأهل الإطار..

- إنها تستأهل.. مارك لديه موهبة... وأنا واثقة من هذا.

ولم يعلق بشيء، بل فتح لها الباب وتبعها عبر الردهة الكبيرة إلى غرفة الجلوس، حيث كانت العائلة مجتمعة. سوزان كانت ترضع الصغير وجبته، فنظرت إلى مارغريت غاضبة وقالت:

- كنت أظن أن دورك في إطعام الطفل هذه الليلة.

وتدخل فرنسوا قائلاً، وهو يجلس على الأريكة:

- يبدو أنك مخطئة إذاً يا سوزان. لقد كنت كسولة جداً في الأيام

الأخيرة، والكسل يقود إلى الفوضى... لقد كانت مارغريت تحدثني عن موهبة مارك هازلنغ كفنان.. ما موضوع تلك اللوحة يا اختنا العزيزة؟

- إنها صورة دوار الشمس... وسأريك إياها بعد وضع إطار لها.

واستدارت مفتشة عن شيء لتقديم المساعدة. كانت الخالة انيتا تشرف على عشاء انطوانيت، وماري روز كانت قد نشرت الملابس على الطاولة، وتركتها لسبب ما دون إكمال ترتيبها. وبدأت مارغريت بطي الثياب، والتفتت ماري روز مبتسمة وقالت:

- أحب أن أرى اللوحة أيضاً يا مارغريت، فأنا لم أشاهد لوحات مارك بعد.

يوم الثلاثاء، تمكن مارك من استعارة سيارة جدته، وذهبا معاً إلى «ارميت»، وقبل العودة إلى المنزل، ذهب إلى المقهى لتناول القهوة. وبعد أن أحضر الساقي القهوة لهما سألها مارك بطريقة عرضية وهو يمرر أصابعه في شعره الأشقر:

- وكيف حال ماري روز هذه الأيام؟

- إنها بأحسن حال.. وماذا تعني؟

- أعني.. منذ الانفصال.. ألم تخبرك؟

- لا.. ولكن هل تعني أنها وفيليب انفصلا؟

- هذا صحيح... الم تلاحظي في حفلة الغداء انهما لم يتبادلا كلمة واحدة؟ وسألت فيليب فقال إن الحب بينهما انتهى. ولكنني لا أظن أن الجدة قد عرفت بعد. ستضرب رأسها في السقف عندما تعلم. ألم تلاحظي أيضاً أن شقيقتك المثيرة كانت تتعدى على ممتلكات ايلين. أيضاً..

- عن ماذا تتحدث؟

- اوه يا فتاتي العزيزة.. أنت تعرفين بالطبع أن جدتي عينها على آل دوفال كوسيلة لجلب بعض المال لإصلاح القصر! وهي لا تريد ماري روز فقط.. بل فرنسوا أيضاً. وليس هناك فتيات جميلات في قرية صغيرة مثل «هوشيه» وفتاة جميلة مثل ايلين لها الحظ الأكبر باكتسابه. ولكن الطفلة المسكينة لا تعرف الكثير من الحيل.. بينما شقيقتك من الواضح أنها تعرف الكثير! وايلين تشعر بالإحباط وتريد العودة إلى ارميت.. لقد أخبرتني هذا بنفسها.. والشكر لسوزان.

وانزعجت مارغريت من هذه الأخبار وقالت بتعجب:

- اوه، حقاً! ولكن لا تستطيع لوم سوزان لهذا، أنت مخطىء، أؤكد لك. أعلم أنها كانت مزعجة ذلك النهار ولكن...

- مزعجة! إنها طريقة مضحكة لوصف المسألة! مع أن المعنى يعتمد على ما تعنيه. أعلم أنها شقيقتك الصغيرة، ولكنني بصراحة أعتقد أنها عابثة خطيرة. وكذلك تملك فرنسوا ليس من شأن أحد، وهي لا تنوي ترك ايلين تحصل عليه، لقد كانت تعني هذا تماماً ذلك اليوم.

- هذا كله هراء! سوزان تلميذة مدرسة، وأعلم أنها تحب إغاظة فرنسوا.. ولكن.. ولكنه مثل الأخ لها.

وضحك مارك بسخرية ناعمة:

- هيا الآن يا مارغريت! واجهي الحقائق! إنه ليس أخوها، هل هو مثل الأخ لك؟

- هذا أمر مختلف. سوزان جزء من العائلة منذ كانت طفلة. لقد فهمت كل شيء بطريقة خاطئة. ولكن دعنا لا نتجادل، هل تظن حقاً أن ايلين تحب فرنسوا؟

- أشك في أن ايلين تعرف ما هو الحب بعد. إنها تنتظر بهدوء لتعرف ما هو. وبما أنها فتاة رقيقة تربت على الطريقة الفرنسية القديمة

فهي تحترم رغبات جدتها. وأظن إذا وصلت إلى درجة أن يضع فرنسوا في رأسه أن يعلّمها الحب فستخاف كثيراً، إنه يرغب في نمرة.. وهي مجرد قطة، واللعبة ستكون قاسية عليها، وفي رأيي أن جدتي قد أخطأت.

ودفع كرسيه قليلاً إلى الوراء وقال:

ـ الأفضل أن نبدأ بالعودة إلى القرية ونضع حداً لهذا الكلام عن الفضائح لا بد أن جدتي ستظن أنني أقوم بإغوائك الآن، ولو لم يكن الأمر يزعجها. وهناك شيء أود قوله يا مارغريت.. انظري.. بما أن ماري روز وفيليب قد انتهى ما بينهما الآن، حسناً.. لا تضحكي عليّ، قد أحاول التودد اليها. ولا أعلم مدى فرصتي معها. فعائلة دوفال مشهورة بعدم حبها للإنكليز. آه.. إن هذا خالٍ من الذوق مني! أليس كذلك؟ لنقل إذاً إنهم يفضلون الفرنسيين.

ـ لا تحاول تجنب جرح مشاعري. على كلٍ، ماري روز مهتمة بانكلترا. وهي تعمل جاهدة للتدرب على تكلم الانكليزية، إذا كان هذا يريحك. ولا أظن انها متحاملة ضدنا كثيراً.

ـ حسناً.. هذا شعاع من الأمل. لك روح رياضية، مارغريت، لقد كنت أتودد اليك، وها أنا اقول لك إن لديّ ميول لفتاة غيرك! لا بد أنك تظنين أنني عابث. هل تخفي هذه الابتسامة قلباً مجروحاً؟

ـ انت تعلم أن هذا غير صحيح.

ـ أنا الآن من جرح قلبه. ولكنني دائماً كنت أؤمن أن فتاة مثلك لا بد لها صديق في انكلترا.. هل أنا صادق؟

ـ آسفة.. لا.. يبدو أنها فكرة شائعة عند الجميع. ولكنني خالية من أية علاقة وسعيدة لهذا، سأحاول أن اوضح لماري روز بطريقة ما أنك لا تخصني، لقد تذكرت، إنها لم تكن سعيدة عندما علمت أنك ستهديني لوحة. ولكنها أخفت الأمر ببراعة.

وكان فرنسوا قد وصل لتوه عندما كان مارك يفتح باب السيارة لمارغريت عند باب المنزل، وودعها بتلويحة من يده، وقال لها فرنسوا بعد ان انتظرها لتدخل «يبدو أن الصداقة البريئة بدأت تزدهر» فأجابته بابتسامة بريئة «أجل.. في الواقع».

ـ ستكونين آسفة عندما يحين وقت ذهابك إلى باريس.

ـ اجل سأكون آسفة..

وكانت تعني ما تقول، ولكن ليس لحساب مارك.

بريد اليوم التالي حمل خبرين، الأول أن هناك تأخير بسيط في عودة الوالدة، والثاني أن ليون وهنرييت سيصلان بعد يومين إلى «هوشيه ليزانج» ليأخذا الأطفال معهما إلى منزلهما في «ديجون».. وقالت سوزان:

ـ لن يكون هناك أطفال لرعايتهم بعد الآن ولن نحتاجك هنا يا مارغريت يمكنك العودة إلى بريطانيا.

ـ ولكنني أريد أن أرى أمي يا سوزان عندما تعود.

ـ ومن سيصدقك بعد أن تركتنا كل هذه السنوات؟ ولماذا لا تجعلي صديقك يأتي بك إلى باريس في وقت لاحق من السنة.

ـ لأنني وهنري لسنا صديقان لهذه الدرجة.

ـ اعتقد أن هذا بسبب مارك هازلنغ.

ـ لا.. أبداً مارك مجرد صديق.

وقفزت سوزان عن العشب واقفة وقالت: لا أصدقك.. أنا تعبة من الجلوس هنا سأذهب على الدراجة إلى «لي فلورون» حيث أكون أول من تخبر فرنسوا بقدوم ليون وهنرييت.

ـ هل أنت ذاهبة إلى هناك حقاً.. أريد التأكد من أنك لن تذهبي إلى مزرعة رولان.

ـ أنا لا أهتم به، لقد نسيته تماماً.. أريد أن أعرف ماذا سيقول

فرنسوا عندما يعرف عن تأخر رجوع امك، حول بقائك هنا. أتعلمين أنه طلب منك المجيء من اجل أمي فقط؟ نحن عادة لا نستقبل الغرباء في بيتنا. ولم يكن أحد يرغب في مجيئك.

ـ أنت لا تعنين هذا يا سوزان.. أنا لست غريبة.. أنا شقيقتك.

ـ وهل جرحت مشاعرك، أنا أقول لك الحقيقة. لقد أفسدت علينا عطلة الصيف، فرنسوا كان طبعه سيء، ولا شيء بقي على ما كان عليه. كلنا نتمنى أن تذهبي وتتركينا وشأننا.

وقفزت على دراجتها وقادتها بعيداً.

ووقفت مارغريت حيث هي... وقلبها ينبض بسرعة. لقد بدت سوزان وكأنها فعلاً تكرهها! ولكن لماذا؟ لماذا؟ يبدو أن مارك على حق عندما قال إن ايلين تريد العودة إلى ارميت بسببها. وهي الآن تحاول التخلص منها ايضاً.. ومرة أخرى.. لماذا؟ هل هي.. هل يمكن... أن تكون تريد فرنسوا لنفسها؟ لو ذهب الأطفال... وماري روز... ودفعت مارغريت للاختفاء.. ستكون سوزان مع فرنسوا لوحدهما ما عدا الخالة انيتا.. أهذا ما ترغب به سوزان؟ وقاطعت مارغريت أفكارها: لا بد أنني مجنونة! لقد قالت سوزان هناك فتاة أخرى! سوزان في السادسة عشر! ولكن فرانسوا قال «في السادسة عشر وجميلة جداً جداً».

وعادت وهي تفكر إلى حيث تجلس ماري روز.

ـ عن ماذا كنا نتحدث؟

ـ عن اصدقائك! وعن مارك..

ـ آه نعم، لقد أزعجتني سوزان. في الواقع ليس هناك بيني وبين مارك سوى الصداقة البريئة، هناك بعض الأشياء المشتركة لأننا تربينا بنفس الطريقة في انكلترا؟ وهذا كل شيء.

ـ ولكنه أهداك لوحة من لوحاته.

ـ هذا فقط لأنني اعجبت بعمله، ولم أكن واثقة أنني سأقبلها. لا يجب عليه أن يهدي أعماله هكذا، ربما سأعلّقها هنا في المنزل إذا سمح فرنسوا. على كل، سنبحث الأمر عندما ينتهي الإطار.

ـ ومتى سيكون ذلك؟

ـ ليس لدي فكرة... سيهتم مارك بالأمر.. في الواقع ايلين تتحدث عن العودة إلى ارميت، لذا ربما تذهبين معها عندما يوصلها فيليب. وأعتقد أنهما سيدعوانك.

ـ أتعنين أن فيليب سيدعُوني؟ لا يا مارغريت هذا غير محتمل. أنا وفيليب أنهينا صداقتنا. لم نعد نفكر بالزواج، لقد كان يعتقد أننا نحب بعضنا، وأعتقد أننا أحببنا بعضنا قليلاً. كانت المدام ترغب في أن نتزوج، ووافق فرنسوا، ولكن الآن انتهى الأمر بيننا، وهذا كل شيء.. لذا لن أذهب إلى ارميت معه. وأعتقد أنني لن أعود إلى هنا إلا بعد وقت طويل. عندما يأتي ليون غداً سأذهب معه إلى ديجون.

ـ اوه لا.. لا يجب أن تفعلي هذا.

ـ ولمَ لا؟.. أنت وأنا الآن متفاهمين وسنفترق كأصدقاء. كما يرغب فرنسوا تماماً.

ـ أجل ولكن...

وتوقفت عن الكلام، فقد ظهر مارك هازلنغ وهو يتقدم نحوهما ويستطيع الآن أن يتولى قضيته بنفسه. ولكن ماري روز وقفت على قدميها وقد شحب وجهها.

ـ لا تذهبي أرجوك، مارك وأنا لا نريد أن نكون لوحدنا. أرجوك!

وجلست ماري روز ثانية، وعندما وصل مارك وحياهما قالت مارغريت بسرعة «سآخذ انطوانيت إلى الداخل لأقرأ لها قصة هيا بنا يا عزيزتي».

- أوه أرجوك.. قد يريد مارك أن يبحث أمر اللوحة معك. وقال مارك «اللوحة؟ آه، أجل ساحضرها غداً لماذا لا تأتيا معي؟».

وقالت مارغريت فوراً:

- لا أستطيع.. الخالة انيتا وأنا لدينا عمل غداً...

- وأنت يا ماري روز؟

- لا أعلم.. سأعود إلى ديجون مع شقيقي في اليوم التالي يا مارك. وأكمل عطلتي هناك.

- وهل يجب عليك هذا؟

- أجل.. وأنا متأكدة أن فرنسوا سيوافق!

وأمسكت مارغريت بيد الطفلة «تعالي يا انطوانيت.. سنذهب لنقرأ قصة عن «الجميلة النائمة».

واختفت في الداخل وهي ترمق مارك بابتسامة.

وكانت جالسة في غرفة الجلوس والصغيرة على ركبتيها عندما سمعت صوت سوزان تدخل المنزل ثم وقع اقدامها تركض على الدرج. وفي اللحظة التالية كان فرنسوا يقف في الغرفة ينظر إليها. وهو عابس.

- ألا تعلمين أن مارك هازلنغ في الحديقة؟

- أجل أعلم.. إنه يتحدث مع ماري روز، أليس كذلك؟

- أليس من الأفضل أن تخرجي اليهما؟

- أنا؟ ولماذا؟

- لماذا؟ لأنه من المفروض أنه هنا ليراك.

- لا.. إنه هنا ليرى ماري روز.

- ماذا؟

- أجل.. إن له الحق الآن بما أن ماري روز وفيليب قد غيرا رأيهما حول بعضهما البعض.

- إذاً هكذا هو الأمر.. وأنت ألا تمانعين؟

- لا أمانع أبداً، لقد قلت لك أكثر من مرة ان ما بيننا...

- صداقة بريئة.. حسناً أنت تعرفين أنني لا أؤمن بهذا يا مارغريت.

والتفت إلى انطوانيت التي نزلت من حضن مارغريت وركضت نحو الباب «اذهبي والعبي في الخارج ثم عودي مع الخالة انيتا يا صغيرتي».

ووقفت مارغريت، الطريقة التي نظر بها إليها الآن جعلتها تضطرب وتذكرت كيف أنه عانقها ليلة كانت عند المدام هوبرت بنوا، هذا شيء حدث بينهما لم يكن أي منهما يريده، ولقد دفعت هذه الذكرى إلى زوايا فكرها، ولكن ليس بسبب المدام. والآن العداء بينهما قد انتهى وتساءلت بشيء من القلق لو أنه كان من الأفضل أن يستمر. كان سيعانقها مرة أخرى، لقد اقتنعت بهذا لحظة التقت عيونهما واصبح نبضها يدق بجنون، وكان هناك ما يدفعها الى الهرب ومع ذلك كانت تشعر أنها لن تهرب. وبطريقة ما أحبت أن يحدث هذا ثانية، كما حدث ذلك تماماً في المرة الماضية.

ثم عادت إلى وعيها. يا للسماء! ما الأمر؟ النية في عينيه... ولكن ربما سيخبرها عن تأخير والدتها في العودة إلى باريس! أو حتى أنها قد تجاوزت مدة إقامتها هنا! فالسماء وحدها تعرف ماذا قالت له سوزان. وقالت له بصوتٍ متحدٍ:

- أعتقد أن سوزان أخبرتك بالخبر؟

- أجل.. سوزان تفعل هذا دائماً.. إضافة إلى واقع أنك عائدة إلى انكلترا.

- وهل قالت لك هذا؟

- أهذا بسبب أنك لم تعودي قادرة على تسلية نفسك مع مارك؟ أم

بسبب خطبتك غير الرسمية في انكلترا؟

- ولا واحد من السببين، إضافة إلى أنني لا أنوي العودة إلى انكلترا.

- أتعنين أن سوزان لم تكن تقول الحقيقة؟

وترددت قليلاً فهي لا تريد أن تتهم أختها بالكذب.

- ربما اعتقدت أنني أريد العودة. ولكنني لا أريد. ومهما كان ما تعتقده، فإن هنري ليس حتى خطيبي غير الرسمي. لذا ترى أن ليس لدي شيء لأعود إليه. لقد أتيت إلى هنا لأرى أمي. وأنا أنوي الانتظار في فرنسا حتى تعود هذا إذا سمحت لي، فعليّ أن أنفذ ما تقوله بالطبع.

- هذه تصريحات مفاجئة منك يا أختنا. أنت عادة صريحة، ومن فتاة غيرك قد يبدو الأمر مثيراً.

- لا أقصد إثارتك، ولكن أنا مدركة أنني كنت صعبة التعامل دون سبب.

- ولكن ليس مؤخراً.. حقاً لا.. ونحن لم نتقابل كثيراً في المدة الأخيرة، ربما بعد ذهاب الأطفال وماري روز ايضاً، سنتمكن من التعويض عن هذا.

- وهل يجب أن تذهب ماري روز؟

- أظن هذا، فسيوفر علينا كثيراً من الإحراج مع المدام هوبرت بنوا.

- أجل.. ولكن الأمر لن يكون لطيفاً لمارك.

- لمارك؟ يا إلهي؟ وماذا تعنين؟ الأنه يلاطف شقيقتي ويتحدث معها في الحديقة...

- الأمر أكثر من هذا.. لقد قال لي بنفسه. إضافة إلى أنني أظن أن ماري روز تبادله الشعور.

- وفري عليّ الأحاديث العاطفية! لا... شقيقتي ستذهب إلى ديجون وهذا نهائي. وإذا كان مارك يتصور أنه يحبها، ويجب أن تعذريني على عدم ثقتي بمصداقيته، لأنه كان يبدو عليه أنه مغرم بك من يوم أو يومين، إذاً فعليه أن يجد طريقة أخرى لإقناعها، ولن أسهّل عليه الأمر، وخاصة أنني مسؤول عن ماري روز إلى حين عودة والدي الى باريس.

- إنه مضحك أن تتحدث عن إحراج الناس وأنت...

وتوقفت، وعضت على شفتها بعد أن نظر إليها نظرة نارية...

- حسناً.. تابعي كلامك.

- حسناً، وأنت ترى أن ايلين تريد العودة إلى ارميت.

وضحك عالياً وكأن ليس لديه شفقة.

- يا للإشاعات في هذه القرية! وهل من المفترض أن أكون مسؤولاً وملاماً عما تريده ايلين أو لا تريده.. يا عزيزتي لا بد أنك سمعت ما فيه الكفاية عن العواطف بيني وبين ايلين موران من صديقك مارك. ولكن ليس لديك دليل على أن هذه العواطف موجودة حقاً. أليس كذلك؟ ايلين بالتأكيد طفلة جميلة وفاتنة، ومطيعة، ولكن جمالها لا يوافق ذوقي ولا دمي يغلي عندما تكون بقربي، ومن الغرابة جداً، أنك أنت من تثيرني يا مارغريت ماسترز.. جسدياً، وعاطفياً أكثر فأكثر..

وحدّقت به واحمّر وجهها حتى أصبح قانياً. ولم تستطع استيعاب ما قاله، وخاصة على ضوء إصرار سوزان أنه متورط مع فتاة أخرى، ولا بد أن ما قاله هو مجرد مغازلة عابرة، مع أن فكرة مغازلته لها من الصعب تقبلها. ومن هي تلك المرأة الأخرى؟ وقال بعد صمت اصبح متوتراً بالتدريج:

- حسناً، اذا كان من غير الصحيح أنك تريدين تركنا، إذاً يجب أن

تبقي. وأريد أن أعرف لماذا قالت سوزان هذا، هذا كل شيء.

ـ ربما تعتقد أنني أطلت الإقامة هنا، أنني دخيلة، ولست جزءاً حقيقياً من العائلة. ومن غير المريح أن يستقبل المرء ضيفاً لمدة طويلة.

ـ فهمت.. في هذه الحالة الأفضل أن تذهب سوزان مع ماري روز إلى ديجون.

وقبل أن تحتج، دخلت سوزان إلى غرفة الجلوس. وأرسلت إلى مارغريت نظرة غاضبة وكأنها تقول: ماذا كنت تقولين لفرنسوا؟ وبادرها فرنسوا:

ـ أنت مخطئة بقولك إن شقيقتك تريد العودة إلى انكلترا. على العكس فهي ترغب في البقاء. وإذا كان الأمر يتعلق بكرهك لوجودها، اذاً أفضل شيء لك سيكون أن تذهبي إلى «ديجون» بعد يومين، وعندها سنكون جميعاً سعداء.

ـ ماذا؟ أوه لا يا فرنسوا! لن أكون سعيدة أبداً. لقد قرفت ما فيه الكفاية من رائحة رضّاعة جاك ومن صوت انطوانيت وهي تكرر سؤالها عن كل شيء طوال النهار. وإذا كانت مارغريت قد أخبرتك شيئاً عني... لقد تجادلنا قليلاً، هذا كل شيء، إنه أمر غير مهم. وهو شيء طبيعي عندما يكون اثنان يقابلان بعضهما يومياً، ولكنني أرغب في أن أنسى الأمر. وأنا واثقة أنها ترغب في العودة إلى انكلترا حقاً. ولكنها تحاول أن تكون مؤدبة، وصديقها يكتب لها رسائل طويلة و....

ـ هذا يكفي... الأمر أنني لا أريد أن أحتوي فتاتين متخاصمتين تحت سقف بيتي. وإذا كان لا يوجد ما يكفي لإشغالك هنا، فسوف تقعين في المزيد من المشاكل. وأظن الأفضل لك أن تذهبي إلى ديجون.

وظهرت نظرة غضب في عيني سوزان، وضربت الأرض بقدمها، وهي تصيح كطفلة غاضبة فاسدة: «لن أذهب يا فرنسوا! وإذا أرسلتني بالقوة ستندم»...

ـ أوه... لا تهدديني يا سوزان.

واستدار متجهاً نحو الباب، وانفجرت سوزان بالبكاء، ومع ان فرنسوا كان ظهره اليها، فقد سمع نحيبها، وكان أول رد فعل لمارغريت أن تقول «يا للطفلة المسكينة!» ولكنها تذكرت قول فرنسوا إن الفتاة تستطيع ذرف الدموع متى شاءت، وملاحظة مارك، بأنها خطرة، وعابثة عنيدة. وبدأت سوزان تجري وراء فرنسوا تصيح باكية:

ـ سأعمل على تحسين لغتي الإنكليزية يا فرنسوا... أعدك.. سأكون حسنة الأخلاق... حقيقة... ولكن أرجوك دعني أبقى...

وعلى الرغم من كل ما فعلته معها، تمنت مارغريت أن يوافق... ففكرة بقاءها لوحدها معه كانت تثيرها كثيراً، وفي قرارة قلبها، كانت تعرف أنها قد بدأت في الشعور جداً بجاذبيته.. وهذا أمر لا مستقبل له...

☆ ☆ ☆

٨ ـ لو لم تأتي

ولم يتراجع فرنسوا عن قراره، وأمضت سوزان اليوم التالي حزينة وسيئة الطباع، كان قد أمرها بتحضير ثيابها في الحقائب، ولكن مارغريت علمت أنها لم تفعل، وأخذت تتصرف بنفس الطريقة التي تصرفت بها مارغريت في باريس عندما كانت في عمر أصغر من عمر سوزان الآن بسنة تقريباً. لم تأكل شيئاً، وتجاهلت كل الجهود لتلطيف مزاجها.

على طاولة الغداء، قالت ماري روز مستسلمة أخيراً:

ـ تستطيعين التمتع في ديجون إذا أردتِ يا سوزان، هنرييت لن تتوقع منك العناية بالأطفال، وسيكون هناك العديد من الأشياء المثيرة تفعلينها. ولكن إذا كنت مصممة على متابعة العبوس، فلن يزعج أحد نفسه لأجلك.

ـ لا أريد أن أقوم بأشياء مثيرة. أنا أحب الإقامة هنا. إنها غلطتك يا مارغريت.. وأنا أعرف الآن لماذا يدعوك الجميع صانعة المشاكل.

وقالت ماري روز باضطراب، وقد تركت سوزان طعامها وغادرت الغرفة.

- لا تلقي بالاً لها يا مارغريت، إنها في عمر صعب. لقد تعودنا على تصرفاتها المجنونة. وستتغلب على ما بها بسرعة، وعندما تصل إلى ديجون ستمضي وقتاً رائعاً وهي تعبث مع كل شاب تقابله، وهذا ما يعجبها هذه الأيام..

أنهت مارغريت وجبتها، ثم ساعدت الخالة انيتا في أعمال المنزل. وخلال بعد الظهر، وصل مارك ومعه اللوحة، وهذه المرة انسحبت ماري روز بسرعة وتركتهما في الحديقة، وأعجبت مارغريت باللوحة، وترددت في قبولها كهدية، ولكنه تجاهل احتجاجها وأخيراً قبلتها واعترفت بأنها سعيدة بها.

- ستتذكرين فرنسا عندما تعودين إلى انكلترا وأنت تنظرين إلى لوحتي.. وستتذكريني أيضاً.

- أجل.. أعتقد أنك تحب أن ترى ماري روز، هل تعلم أنها ذاهبة إلى ديجون غداً؟

- أجل... ولم أستطع إقناعها بتغيير رأيها. لقد غادرت منزل جدتي، وأنا أعيش الآن في الفندق في ساحة القرية، إذ لم تعد جدتي تحبني أبداً... في الواقع، تعتبرني مسؤولاً عن الانفصال بين ماري روز وفيليب. آه... هذه هي الحياة. وعلى فكرة أنت في لائحة المكروهين عند جدتي أيضاً...

- أنا؟ ولماذا؟

- لقد وضعت في رأسها أنك اتيت إلى فرنسا بقصد الاستيلاء على فرنسوا دوفال، وكانت تتوقع زواجه من ايلين. فالقليل من مال دوفال سيكون عوناً لها في إصلاح القصر، وهي تنظر إلى فرنسوا كرجل عنده ذوق قد يوافق على مثل هذا المشروع.

- ولكن.. ماذا لديها ضدي؟

- لا أعلم.. لو أنها رأت ما رأيته أنا في ذلك الحفل للغداء، لكرهت شقيقتك، لا أنت. لم أرى في حياتي فتاة في السادسة عشر لها مثل هذه الإثارة، ومن الغريب أن لا يردعها فرنسوا، ولكن ربما يكون مهتماً بها...

- ماذا؟ إن عندك تفكير قذر يا مارك. لقد قلت لك من قبل، سوزان كانت تحاول مضايقة فرنسوا فقط.

- لأجل المرح... أنا آسف، يداك مغلولتان بالنسبة لشقيقتك، الست كذلك؟ لذا لن أقول المزيد. على كل، أريد إخبارك بما قررت أن أفعل.. سأذهب إلى ديجون بعد أيام، فأنا مجنون بحب ماري روز.

ودخلت مارغريت المنزل، ووضعت اللوحة في مكان ما في غرفة الجلوس. ثم صعدت الدرج إلى غرفتها، ولكنها قبل أن تصل لمحت سوزان تخرج على الدراجة من الكراج، إما أنها ذاهبة إلى «لي فلوران» لمقابلة فرنسوا، أو أنها ذاهبة إلى المزرعة لمقابلة ارمان. وبحالة سوزان النفسية الحاضرة، لن تستطيع ترك الأمر للصدفة. ونزلت الدرج راكضة، وخرجت من الباب، وأدركت سوزان وهي تحاول فتح البوابة الكبيرة، وصاحت بها:

- إلى أين أنت ذاهبة؟

- أنا ذاهبة إلى المزرعة.. لماذا؟

- هذا سؤال عليّ أنا أن أساله! هل تبحثين عن المشاكل؟ انت تعرفين ما قاله فرنسوا.. وأنت تعرفين كيف هو ارمان.

- وكيف هو ارمان؟ وماذا تعرفين عنه؟

وأمسكت مارغريت بمقود الدراجة، وهي تنوي منع سوزان من الذهاب بالقوة.

- سوزان؟ أنت تعرفين جيداً ما هو نوعه... يجب أن تكوني عارفة.. الأمر واضح. ما عليك سوى الحديث معه لتعرفيه.. سوف يستغلك لحظة يعتقد أنك تشجعينه.

- لا أمانع.. فالأمر مثير... وإذا لم يعجبني الأمر أستطيع الفرار.. على الأقل هو لا يعاملني كطفلة..

- ولكنك فعلاً طفلة.. هل فكرت بما قد يحدث لو لم تستطيعي الهرب منه، سوف يؤذيك!

- يؤذيني؟ ألا تظنين أنني اشعر بالألم لمجرد أن فرنسوا سيرسلني إلى ديجون بينما كل ما أريده هو البقاء هنا؟ لولاك لما حدث شيء.

واستمعت إليها مارغريت وقد نفذ صبرها، وما صدمها أن سوزان إما أن تكون طائشة غير مسؤولة عن تصرفاتها، أو أنها غير مدركة أنها تسعى وراء تجربة مؤذية. فقالت لها بحدة:

- حسناً.. لن يفيد هربك أحد، وستحصلين على مغامرة غير محمودة العواقب مع ارمان دولان.

- سأظهر لفرنسوا أنني ناضجة.

- ستظهرين له أنك حمقاء. إضافة إلى أنه قال لك من قبل، إذا لم تفعلي ما يقوله لك فلن يسمح لك بالمجيء إلى هنا ثانية.

واتكأت سوزان على عمود الباب ونظرت إلى شقيقتها بانفعال حاد:

- لقد كنت أفعل ما يقول... وهذا بالضبط ما كنت أفعله، ومع ذلك سيبعدني.. ولا أريد الذهاب إلى ديجون، وإذا ارغمني فسيندم. وسأفعل شيئاً يستحقه، وهذا أمر منطقي، أليس كذلك؟ وأنت تريديني أن أذهب، أنت تحبين فرنسوا، أليس كذلك؟

- بالطبع لا.. ولا أعلم لماذا تتصورين مثل هذا، إضافة إلى أنك قلتي إنه يحب فتاة أخرى.

- أجل، هذا صحيح يا مارغريت، وسيتزوجها بعد سنة أو سنتين، فالأمر مستحيل الآن.

- ولماذا لا؟

- اوه.. لن أقول لك. فرنسوا يقول إن عليّ أن أضبط لساني، ولكن ألا ترين أن لا فائدة من جريك وراءه.

- أعلم هذا.. انظري يا سوزان، أرجوك لا تذهبي إلى المزرعة. حقاً لا يجب ان تذهبي، فهذا جنون.. وأعدك أن أطلب من فرنسوا أن يتركك هنا، وأن لا يرسلك إلى ديجون.

- ولماذا قد يصغي إليك؟

- ربما لن يفعل.. ولكن على الأقل سأحاول. وأنت تعلمين أن ليس في مصلحتك عصيانه هكذا.

- حسناً.. حسن جداً.. تكلمي مع فرنسوا، وإذا رفض، سأجعلكما تندمان معاً..

وعندما تركت سوزان الدراجة وعادت إلى المنزل، ركبتها مارغريت واتجهت نحو «لي فلوران» لتلتقي بفرنسوا، وحاولت عدم التفكير بما قالته سوزان «أنت تحبين فرنسوا» مع أنها مدركة أنها قاربت الحقيقة. وفجأة لاحظت سيارة قادمة باتجاهها، وبما أن الطريق ضيق فقد ترجلت عن الدراجة ووقفت جانباً، وعندما وصلت إلى الحافة ونظرت خلفها أدركت أنها سيارة فرنسوا.

- هل حدث شيء في المنزل؟

- لا.

- حسناً هل كنت تبحثين عني؟ أم أنك خرجت للتمرين فقط؟

- لقد... املت أن أراك.. كنت أفكر يا فرنسوا.. وهناك... هناك شيء سأطلبه منك.

- حسناً.. لنضع الدراجة في صندوق السيارة، واجلسي معي،

واخبريني بالأمر. لا بد أنه شيء مهم لا ينتظر عودتي إلى المنزل.

ولم ترد مارغريت، بل صعدت إلى السيارة، وانتظرت إلى أن وضع الدراجة في الصندوق. وعاد إلى مقعده وأغلق الباب، وأشعل سيكارة.

ـ والآن.. ما الأمر؟ أتمنى أن لا تكوني قد تشاجرت ثانية مع سوزان. هل قررتي العودة الى انكلترا، ولا تعرفين كيف ستخبريني هذا؟

ـ لا.. الامر ليس هكذا. إنه حول سوزان.. أتمنى أن لا تجبرها على الذهاب إلى ديجون. إنها لا تريد، وهي شقيقتي ولم نرى بعضنا كثيراً. وليس من الإنصاف تفريقنا دون سبب. وقريباً ستعود إلى المدرسة، وأنا لن أبقى طويلاً في باريس مع أمي..

ـ ولماذا لا؟

ـ لدي شعور، بأنني كبيرة كفاية كي لا انسجم مع حياة أمي. وأنت قلت بنفسك إن الوقت قد تأخر. ولقد أزعجتها من قبل، كما تذكر. ولهذا نصحت والدك بإبعادي. ما زلنا، أنا وهو، غرباء عن بعضنا، ولا سبب يدفعه لأن يكون سعيداً بوجودي معه.

ـ إذا كانت أمك تريدك، فهذا سبب كافٍ له. وخاصة أنها مريضة.

ـ حسناً.. سنرى.. ولكن هذا ما كنت سأطلبه منك، أن تترك سوزان تبقى هنا.

ـ هل أنت خائفة من بقائك معي لوحدك؟

ـ على الأكثر سأكون ضجرة أكثر من خائفة.

ـ لا.. أظن أنك خائفة. حتى أنك خائفة لأنك وحدك معي الآن يا صغيرتي.. وماذا تعتقدين أنه سيحدث؟ هل تخشين أن أغازلك؟

ـ لا.. فأنا أعرف أنك لا تحب أن تفعل هذا في السيارة.

ـ صحيح.. فأنا أكبر سناً من أن أفعل هذا. ولكن طبعاً عندما لا

يكون هناك بديل، لا يمكنني إلا أن أفعل.. أليس كذلك!

ـ هذا خارج عن موضوعنا.. وبشأن سوزان..

ـ أوه.. انسي سوزان.

وجذبها نحوه، وأبقاها على بعد يكفي كي ينظر إلى عينيها بشكل مريح.

ـ الأمور تبدلت كثيراً بيننا.. أليس كذلك؟ لقد كنا متوترين من بعضنا عندما التقينا، ولكننا الآن لم نعد نصطدم مع بعضنا. لقد بدأنا نرى ما هو جيد بيننا.

وجذبها أقرب، وعانقها بقوة.. وعندما رفع رأسه ثانية وتلاقت نظراتهما، لاحظت أن يداها اصبحتا خلف رقبته في الدفء تحت شعره. وأن إحدى ذراعيه قد أصبحت ملتفة تماماً عليها. وتلفظ باسمها بصوت خافت جعل الرعشة تجري في جسدها!

ـ مارغريت...

ـ فرنسوا...

وعندما قالت هذا، بدأت تعود إلى وعيها، إن هذا جنون... لا معنى له، ومع ذلك... مع ذلك لا.. لم يكن هكذا. إنه حقيقي، كل ما قالته سوزان عن الفتاة الأخرى لا يعني لها شيئاً. فالفتاة هذه، لا تعني له أكثر من ايلين موران.. هي، الآن، الفتاة التي بين ذراعي فرنسوا، هي، من يهمس لها.. هي من يحتضنها، وتراجعت عنه بمضض عندما قال أخيراً:

ـ الأفضل أن نعود يا عزيزتي.. قبل أن نستغرق أكثر في هذا...

ولم تكن سوزان شاكرة ولا سعيدة، عندما قال لها عند تناول العشاء فيما بعد إن بإمكانها البقاء في «هوشيه ليزانج».

ـ هذا لمجرد إرضاء شقيقتك... ولكن حسّني تصرفك...

ورفعت رأسها، وقالت بتكبر:

- أنت تتكلم معي وكأنني في العاشرة من عمري.

في اليوم التالي ذهب فرنسوا إلى عمله في معصرة العنب، ولكنه عاد باكراً، لأنه كان يتوقع وصول ليون وهنرييت اليوم. وشعرت مارغريت أنها فعلاً دخيلة في هذا التجمع العائلي، مع أن ليون حياها بودٍ كبير، وهنرييت، التي لا تعرف عنها سوى أنها شقيقة سوزان، شكرتها بحرارة على المساعدة برعاية أطفالها. ودعتها لزيارة ديجون، وتحمست سوزان للفكرة...

- أوه يجب أن تذهبي يا مارغريت.. لقد قلتي إنك تحبين هذا.

وشعرت مارغريت بالإحراج، لم تكن قد قالت مثل هذا الشيء. لم تكن تريد الذهاب، ولكن ها هم جميعاً... ماري روز، ليون، سوزان حتى الخالة انيتا، يوافقون مع هنرييت بأنها فكرة رائعة، وفي وسط ضجة الأصوات بالفرنسية. استدارت إلى فرنسوا بيأس، إذا قال لها، اذهبي، فستذهب، وفي هذه الحالة لن تريد أبداً أن تبقى ولكنه، للعجب، قال «لا».

- سوزان ومارغريت ترغبان بالبقاء هنا، على كل، هما شقيقتان، وسيكون هناك أوقات أخرى للزيارة. ربما بعد برهة قصيرة في باريس قد تحب مارغريت أن تزور ديجون، إذا كانت الدعوة لا تزال قائمة.

وتوقف الجدال، فقد تكلم فرنسوا، وكأن الفكرة لم تطرح أبداً وبعد فترة من الحديث الحميم بين الشقيقين حول الأعمال، صعدت العائلة إضافة إلى ماري روز السيارة ومضت بهما نحو ديجون.

بعد ذهابهم مباشرة، استمر الطقس ممطراً ثلاثة أيام، مطر صيفي.. وبقي فرنسوا خلال هذه الفترة في المعصرة، دون أن يعود حتى في الليل. وقالت الخالة انيتا وهي تنظر من النافذة:

- إنه وقت حرج.. مثل هذا المطر قد يخرب كل عمل السنة، ويتلف المحصول ايضاً. أتمنى أن لا يستمر أكثر.

وفي اليوم الرابع أشرقت الشمس ثانية. وانبعثت حرارة الصيف مجدداً. وعملت الخالة انيتا مع ڤيوليت بتنظيف المنزل بينما قررت سوزان تمضية نهارها تتزين، وذهبت مارغريت إلى القرية لتتسوق. وكانت قد أنهت مشترياتها وأخذت تتجول في الساحة، متسائلة ما إذا كان عليها أن تذهب إلى الفندق لتسأل عن مارك. عندما التقت فجأة وجهاً لوجه مع المدام هوبرت بنوا. وحيّتها بأدب:

- بونجور مدام.. هل أنت بخير؟

وتجاهلت المرأة تحيتها وقالت:

- إذاً أنت لا زلتي هنا يا مدموزيل.. أتساءل كيف تجدين الجرأة لتكلميني بعد أن تعمدتي تخريب خططي التي دبّرتها باتقان وتفكير للأشخاص الذين أهتم بهم.. ولكن صدقيني.. فرنسوا سيضجر سريعاً من فتاة انكليزية.

- اعذريني! ولكنني أخشى أنني لا أفهم ما تقولينه، أنا لست ملامة إذا لم تنجح خططك... هل لك أن تخبريني ما إذا كان مارك لا يزال هنا؟

- لن أخبرك شيئاً.. لقد غسلت يداي من حفيدي الإنكليزي. إنه مخرب مثلك تماماً. أتمنى لك يوماً سعيداً..

وانتهى الأمر.. فاستدارت فجأة وانصرفت.

وتنفست مارغريت الصعداء. لا يمكن أن تكون مسؤولة عن تغيير عواطف فرنسوا تجاه ايلين موران.. ما عدا أنه قد عانقها مرة، وهذا كل شيء.

كل شيء؟.. في أعماق قلبها لم تستطع أن تقتنع. ففي المرة الأخيرة شعرت بأنها قريبة منه جداً. ليس إلى جسده فحسب، بل إلى روحه. شعرت بروحها تذهب إلى روحه لتتصلا اتصالاً وثيقاً. ومع ذلك فهي مدركة أنها رغم خسرانها السريع لقلبها معه، فقد تكون لا

تعني شيئاً له. وشعرت بالألم للحكم عليها بهذه القسوة من قبل مدام هوبرت بنوا. ولكنها استعادت رباطة جأشها بسرعة وذهبت إلى الفندق.

وهناك علمت أن مارك لا زال موجوداً. ونزل من غرفته للقائها:

ـ لقد كنت أوضب حقائبي. وبما أن المطر قد توقف الآن سأذهب إلى ديجون لأجرب حظي.. كنت أنوي زيارتك للوداع.. كيف حالك؟

ـ أوه.. كل شيء هادىء. لم يعد هنا سوى أنا وسوزان، والخالة انيتا. لم يحضر فرنسوا إلى المنزل منذ ايام. يبدو أن المطر عرّض المحصول للخطر. هل وصلك أي خبر من ماري روز؟

ـ ولا كلمة.. ولست أدري أي استقبال ينتظرني.. ولكنني مليء بالأمل..

وتحدثا قليلاً ثم ودعته وخرجت. وهي تسير في الشارع الضيق باتجاه المنزل.. بدا لها أن كل شيء سيتغير بسرعة، فبعد وقت قصير ستعود أمها إلى باريس، وسيحين موعد ذهابها إلى هناك. هل سيهتم فرنسوا بالأمر؟ أم سيكون سعيداً بالخلاص منها؟

تلك الليلة عاد فرنسوا إلى المنزل، وفي الحال تغير جو المنزل كله.. وامتلأت سوزان بالحيوية، وكانت تبدو جميلة جداً، طبعاً بعد قضائها نصف نهارها تتجمل، آملة أن تحصل على إطراء منه. وقال لها بسرعة:

ـ أنت تبدين جميلة يا عزيزتي..

ثم بدأ فوراً التحدث مع الخالة انيتا حول المحصول، مؤكداً لها أن المطر لم يؤذي الجزء الأكبر من الكرمة. بعد ذلك، عند تناول القهوة، اقترح على مارغريت الذهاب لزيارة المزارع في اليوم التالي

معه. وقبل أن ينهي كلامه قفزت سوزان صائحة «وأنا أيضاً يا فرنسوا!».

ـ أنت؟.. ستضجرين يا صغيرة. كما أنك ذهبت إلى هناك مئات المرات. وستكون تجربة جديدة لمارغريت.

وتوسلت إليه مارغريت.

ـ اوه.. دعها تأتي معنا يا فرنسوا.. لقد كنا مسجونتين في المنزل لثلاثة أيام..

وفي اليوم التالي غادر ثلاثتهم إلى معصرة العنب والمزرعة في سيارة السيتروان. هناك زارت الأقبية وماكنات العصر والماكنات التي تفصل الأغصان الصغيرة والبذور عن العصير. وعندما خرجوا إلى الشمس ثانية، ركضت سوزان نحو السفوح حيث الرجال في سترات زرقاء وقبعات سوداء يعملون تحت الشمس. وقال فرنسوا لمارغريت:

ـ تعالي.. سأريك الأقبية والمخازن.

وترددت قليلاً «ولكن ألن تأتي سوزان معنا؟».

ـ لقد لاحظت بنفسك أنها ضجرة من رفقتنا، وستجد تسلية أكبر في تبادل الحديث مع الشبان. وستكون بأمان، فلا تقلقي، فليس هناك شبيه بارمان دولان هنا.. دعيها تفعل ما تشاء.

الاقبية كانت تحت منزل المزرعة هناك، ودخلا إليها عبر باب منفصل، يقود إلى الأسفل عبر درج حجري قديم، وكان المكان مظلماً وبارداً، وأضاء فرنسوا ضوءاً خافتاً، وأخذت تتطلع من حولها إلى البراميل الكبيرة التي تحوي عصير العنب، وتجولا قليلاً في الأقبية، ثم وضع يده على كتفها وعادا صعوداً عبر الدرج الحجري نحو ضوء الشمس وأشعتها اللامعة.

وتطلعت مارغريت فوراً من حولها باحثة عن سوزان. ولكنها لم

تشاهدها فقالت «هل نذهب ونبحث عن سوزان؟ قد تشعر بأننا نتجاهلها».

- اوه.. لن أفتعل ضجة حول هذه الطفلة.. إنها بخير.. هيا بنا الآن فالسيدة مينار زوجة مدير المزرعة ستحضر الطعام لنا. وستأتي سوزان عندما يذهب الرجال للغداء.

وسارا معاً نحو المنزل وذراعه لا زالت حولها، وقالت ورأسها إلى الأرض:

- إنك تحاول أن تجعلها تندم على عدم ذهابها إلى ديجون، أليس كذلك؟

- ربما.. كان يجب أن تذهب، ونستطيع تسلية نفسنا دون وجودها.. ألا توافقين معي؟

ونظرت إليه مارغريت، وشعرت برعدة تسري بها وهي تلتقي بعينيه. من السهل أن تقنع نفسها أنه مجنون بحبها! لديها شعور قوي بأنه يرغب في أن يحتويها بين ذراعيه، ويحتضنها. الفكرة فقط كانت كافية لتجعلها تضطرب، فهي تعلم أنها تتوق لأن يحدث هذا. وأسرعت للنظر بعيداً عنه. فتمتم وهو يجذبها إليه أكثر:

- لقد كنت تقرأين أفكاري يا مارغريت. بدأت أشعر أنني لا أستطيع الحياة من دونك. لقد عرفت هذا بشكل أكيد خلال الأيام الأربعة التي أبعدت نفسي عنك فيها متعمداً. ولا أعلم إذا كنت أستطيع السماح لك بالذهاب الى باريس، من الممكن لأسبوع لا أكثر، على شرط أن تعودي رأساً إلى هنا.

ووصلا إلى باب المنزل وهو ينهي كلامه، وأسرعت مدام مينار لاستقبالهما بابتسامة مرحبة على وجهها. وابتسمت لها بينما كان فرنسوا يقدمهما إلى بعض. وشعرت بالاستياء لتوقف حديثهما فجأة قبل أن تكتشف إلى أين سيقود هذا الحديث، وما إذا كانت تتخيل

الأشياء. كم يا ترى مدى جدية فرنسوا؟

وقادتهما السيدة مينار إلى غرفة الطعام، وانضم إليهم زوجها، وسألها بأدب عما كانت تشاهده. وجلس الجميع في أماكنهم عندما وصلت سوزان. ولم تحاول الاعتذار عن التأخير بل جلست في المقعد الذي قدّمه لها السيد مينار.

خلال عودتهم، أثارت سوزان موضوعاً عن أحد الشبان.

- بيار قال إنه رآني عدة مرات في القرية. تفاجأ بأنني لا زلت في المدرسة، كان يظن أنني في التاسعة عشر! ألا تمانع في مصادقتي له يا فرنسوا؟ ولكنك مانعت بصداقتي مع ارمان، لماذا؟

ولم يرد عليها فرنسوا، ونظرت إليه مارغريت، ولدهشتها لاحظت أنه لم يكن يستمع إلى سوزان، وشكت في أنه لم يسمع كلمة مما قالت. ما هو الشيء الذي يشغل تفكيره يا ترى؟ هل هو يفكر.. بها؟ واستدارت نحو سوزان، وهي تشعر بالذنب، واكتشفت نظرة غضب وإحباط خلف حيويتها الطفولية.. مسكينة سوزان! إلى ماذا تسعى؟ مارك قال لها إنها رغبت في التخلص من ايلين. فهل ترغب الآن في التخلص من مارغريت؟ وإذا كان الأمر هكذا.. فلماذا؟

لم يكن عليها حقاً أن تبحث عن الرد. إذ لا بد لأنها تشك بأن فرنسوا بدأ يقع في حب مارغريت. ولكن لماذا لا يمكن لفرنسوا أن يكون حراً بأن يحب من يشاء؟ هل تعرف سوزان شيئاً خاصاً حول تلك الفتاة الأخرى، حتى أنها مصممة على أنه لن يتورط مع أية فتاة أخرى؟ أم أنها بكل بساطة، شقيقة صغيرة تحب التملك كثيراً...؟

☆ ☆ ☆

٩ ـ أختان ورجل واحد

نسيت مارغريت كل قلقها على شقيقتها، عندما دعاها فرنسوا إلى التنزه معه في الحديقة بعد العشاء تلك الليلة. وقال للخالة انيتا:

ـ لدينا أشياء محددة لنتحدث بها..

فهزت الخالة رأسها وكأنها قد فهمت. ماذا يا ترى ظنت أنهما سيتحدثان؟ في الواقع كان هناك رسالة بانتظارهم عندما عادوا إلى المنزل تحدد موعد عودة الوالدة بعد خمسة ايام. إذاً، ربما سيكون الحديث حول هذا الموضوع. أو ربما.. ربما سيكون...

لقد كان أمامها فرصة كافية للتفكير بتلك اللحظات مع فرنسوا عندما قال لها إنه لا يستطيع العيش من دونها، وإنه يريدها أن تعود إليه بعد أن تمضي وقتاً قصيراً في باريس مع أمها. وهي تعلم أنها تشعر نفس الشعور نحوه. غريب كيف حدث هذا، بعد أن ظنت في البداية أنها لن تستطيع أن تتعايش معه. ربما يكون سبب هذا مزيج من القرب منه الذي ذكرته مدام هوبرت بنوا ومن التحول الخاص

لأطباع البشر. فالصلة معه علّمتها أنها ترغب به، بكل بساطة. وبالطبع لم يجرى زراعة أي بذور ورعايتها حتى تنمو. بل كان نمواً برياً دون رعاية، كذلك بالنسبة للنتائج.

وقطعت حبل تفكيرها، ونظرت إلى فرنسوا وهما يدخلان الحديقة فقال لها:

ـ هل قلبك يخفق يا عزيزتي؟

كان قد شبك ذراعه اليمنى بذراعها اليسرى، وكان بذلك يستطيع الإحساس بخفقات قلبها بين ضلوعها. وأصبحت الآن واثقة أنه سيتابع الحديث الذي بدأه في وقت مبكر من ذلك اليوم، وهذا ما رغبت به أكثر من أي شيء في الدنيا.

وقطعا الفناء ثم هبطا الدرج العريض المؤدي إلى المرج، وخطواتهما لا صوت لها. كان القمر يشع، ورائحة الورود والجيرانيوم تملأ الجو. وبدت أمامهما الطاولة والمقاعد تحت شجرة الكستناء الكبيرة. ولكن عندما بلغا ظلالها. جذبها فرنسوا إليه بصمت واحتضنها بين ذراعيه، طويلاً...

ـ هذا أفضل بكثير يا عزيزتي من العناق في السيارة أليس ذلك؟ فنحن هكذا أقرب إلى بعضنا البعض، وتلامسنا، يجعلنا نحس أكثر بمشاعرنا تجاه بعضنا البعض... هل تعلمين أنني أحبك...؟

والتقطت انفاسها وقالت:

ـ لست ادري لماذا عليك أن تحبني؟

ـ ألا تعرفين؟.. يوماً ما سأقول لك السبب.

وأخذ وجهها بين يديه وحدّق في عينيها.

ـ وأنت يا حبيبتي.؟ هل نسيت كرهك لي؟ وهل غفرت لي عدم فهمي لك، ودوري في إبعادك عندما كان يجب أن أسّهل الأمور عليك لتبقي؟.

وهزت رأسها إيجاباً..

ـ وهل غفرت لي.. حماقتي التي لا تنسى.. ورفضي التصرف بطريقة حضارية؟

ـ لقد غفرت كل شيء.. حتى كونك انكليزية. مع إنني، وللحقيقة فقط، أجد ان طباعك نارية فرنسية، وهذا ما يؤكد لي أن الدم في عروقك ليس انكليزياً صافياً.. ولكنني لست أهتم لأعرف ما أنت ومن أنت يا حبيبتي.. فرنسية أم انكليزية، أم مزيج من الاثنين. كل ما أعرفه أنك امرأة... وأنك بالنسبة لي تملكين شيئاً لا تمتلكه أية امرأة أخرى...

وسحبت نفسها قليلاً منه لتقول بجفاء:

ـ ولا أية امرأة أخرى يا فرنسوا؟ هل.. هل أنت متأكد؟

وأبعدها عنه غاضباً، وهو لا يزال ممسكاً بها:

ـ هل تفكرين بايلين؟ ألم أقل لك إنني لم أكن اشعر بالحب نحوها؟ لقد كان ذلك موجوداً فقط في مخيلة مدام هوبرت بنوا. وربما كانت ايلين موافقة مع رغبة جدتها. ولكنني أنا أتخذ قراراتي بنفسي. كنت أظن أنك تعرفين هذا.

ـ أوه.. أجل يا فرنسوا.. لم.. لم أكن أعني ايلين.

ـ إذاً من تعنين؟ لا يمكن أن تكوني قد بحثت في الماضي...

ـ لا.. ابداً..

ولم يعد لديها أدنى فكرة كيف ستتابع كلامها. وكيف ستقول له إن سوزان تصرّ أن هناك فتاة أخرى في حياته، وأن تلك الفتاة لأسباب خاصة لا تستطيع الزواج منه في الوقت الحاضر، ولكن من المؤكد أنها ستتزوجه فيما بعد؟

وبينما هي مترددة، قال بصوت خفيض:

ـ تعالي إلى هنا يا مارغريت.. سأثبت لك أن ليس هناك امرأة اخرى في حياتي، وأنك أنت الوحيدة التي أحب وأشتهي...

رقته، عناقه اللطيف، دفء ذراعيه وصدره جعلها في وقت قصير تنسى كل شيء وتحلّق في سماء السعادة. وعندما تركها، سألها بنعومة:

ـ ألا يزال هناك شك ما يا حبيبتي؟

وهزت رأسها نافية، وستنسى كل ما قالته سوزان، اذ لم يكن أمامها خيار آخر. فرنسوا يحبها وهي تحبه، وليس هناك مكان للشك...

ـ ستذهبين إلى باريس دون شك، وسترغب الوالدة في استبقائك لفترة... ووالدي سيكون مفتوناً بك لا ريب. وسينسى بالكامل ما كنتِ عليه عندما كنت صغيرة، وكيف عرّضت زواجه للخطر. ولكن يجب أن تعودي قريباً إلى «هوشيه ليزانج». وستعودين في تشرين الأول وقت عصر العنب وهذا سيكون احتفالاً بعلاقتنا، وبمشاعرنا الجديدة تجاه بعضنا، وسننطلق في حياتنا منذ تلك اللحظة.. موافقة؟ أم أنني أتقدم سريع الخطوات منك، يا فتاتي الانكليزية الصغيرة؟

ـ لا يا فرنسوا..

فضحك وقال:

ـ لم أتوقع أبداً أن أسمعك توافقين معي حول أي شيء بهذه الإرادة، ولكن لا تقلقي.. فأنا لست مجنوناً كفاية لأظن أن هذا سيدوم إلى الأبد.. وأنا لا أرغب بهذا على كل الأحوال. فأنا أحب روح التحدي فيك.. أليس لديك أي ندم أو تحفظ بالنسبة للرجل الذي تركتيه في انكلترا؟

ـ لا.. فهنري وأنا أصدقاء فقط، ولم يتطور الأمر إلى شيء آخر، على الأقل من جهتي، فأنا لم أشجعه أبداً عندما كتبت له.

ـ إذاً لم يكن الأمر صداقة بريئة بشكل قاطع.. حسناً.. عندما

تعودين إلى بريطانيا، وأستطيع القول إنك سترغبين في هذا قبل زواجنا... فسأذهب معك.. احتياطاً..

كلماته أرسلت الرعدة في جسدها.. قبل أن نتزوج! هذا أمر لا يصدق! لقد كانت تسير نحو عمل شيء طالما قالت إنها لن تفعله.. أن تتزوج رجلاً فرنسياً... ولكن.. هي نصف فرنسية على كل الأحوال، وها هي قد بدأت تدرك ذلك.

وسمعا باب المنزل يصفق بعد أن خرجت سوزان منه.. وصاحت بحدة: «هل أنت هنا يا فرنسوا؟».

ـ يا إلهي... هذه الفتاة! ألن تتعلم الأدب أبداً؟

كانت سوزان تنظر اليهما من الشرفة الخارجية، وأبقى فرنسوا ذراعه حولها وقال لسوزان:

ـ سندخل إلى المنزل الآن يا حبيبتي. حضّري لنا بعض القهوة لنشربها معاً.

ولم تردّ سوزان، بل اختفت في الداخل، وعندما دخلا المنزل كانت قد ذهبت إلى فراشها.

في اليوم التالي، كانت سيئة الأخلاق، وعلمت مارغريت بالتأكيد أن هذا له علاقة بما شاهدته بينها وبين فرنسوا ليلة أمس. وهذا ما أساء إلى شعورها بالسعادة. وبدا اكثر وضوحاً أن سوزان تحب أن تمتلك فرنسوا، بالطبع هي تعرفه لمدة أطول مما عرفته مارغريت. ولم تدر كيف تتعامل مع هذا الوضع. وحاولت بكل بساطة أن تتصرف بشكل طبيعي. ولكن الخالة انيتا، والتي يمكن أن تكون قد علمت بما يحدث بين مارغريت وفرنسوا، وربما لا، لم تستطع أن تتحمل فقالت لسوزان، بينما كانت الفتاة تجلس صامتة إلى مائدة الغداء:

ـ كان يجب عليك الذهاب إلى ديجون يا مدموزيل. لقد مضى عليك وقت طويل دون عمل شيء. «هوشيه ليزانج» ليست مكاناً

للشابات الوحيدات لقضاء عطلات الصيف الطويلة.

ـ لقد بدأت أوافق معك يا خالة انيتا. ولكنني كنت أتمتع بوقتي في السنوات الماضية. وكنت سعيدة هذه السنة إلى أن أتت مارغريت والأطفال وأصبح فرنسوا لا يطاق.. في الصيف القادم سيكون كل شيء مختلفاً، وسترين.

ـ الصيف القادم سأندهش إذا سمح لك فرنسوا أن تأتي إلى هنا.

ولم تشارك مارغريت بالحوار.. وماذا سيأتي به الصيف القادم؟ هل ستكون هي وفرنسوا قد تزوجا؟ سيكون أمر مخجل إذا لم تستطع سوزان أن تأتي، ومع ذلك فصحيح أن هذه القرية الصغيرة ليست بالمكان المثير لفتاة في السادسة عشر، أو السابعة عشر. ولا عجب لو أن سوزان ورطت نفسها مع ارمان دولان. ولكن بحلول السنة القادمة، وعندما تصبح أكثر نضجاً، قد تفضّل الذهاب إلى ديجون، أو إلى نيس حيث تعيش ليليان.. على كلٍ، الزمن كفيل بالكشف عن المستقبل.

واندهشت مارغريت عندما نزلت سوزان بعد الظهر من غرفتها، حيث كانت مارغريت تعشّب الحديقة، والخالة انيتا تجلس في الظل تشتغل بقطعة «كروشيه» وطلبت منها أن تذهبا في نزهة. ووافقت مارغريت فوراً، فقد بدت لها سوزان وكأنها تحمل غصن الزيتون. وقالت مبتسمة «سأحب هذا كثيراً» ولكن ابتسامة سوزان، كانت مقلقة وهي تقول «إذاً هيا بنا».

وخرجتا من القرية، متجهتين نحو التلال.. وبعد دقائق سألتها مارغريت «أين نحن ذاهبتان؟».

ـ إلى الغابة، ربما سنجد النبع.. هل تحبين أن تري المعبد الصغير؟

ـ أحب هذا كثيراً.

وتمنت مارغريت أن تصدق أن نوبة العبوس عند شقيقتها قد انتهت. ولكن سوزان لم تكن بعد ميالة إلى الثرثرة، وهذا على غير عادتها، وعندما سألتها مارغريت ما إذا كان النبع هو نبع الساقية الصغيرة لم تردّ عليها.

ودخلتا الغابة الآن، الطريق ضيق جداً لدرجة أنهما اضطرتا للسير خلف بعضهما، كانت الغابة باردة وخضراء، ومظللة بعد لهيب الشمس في الطريق عند سطحُ التلة. وكانت الكبوش البرية تنمو على جانبي الممر، والأرض مفروشة بكثافة بالأوراق اليابسة المتساقطة من أيام الخريف الماضية، حتى أن وقع خطواتهما لم يكن يسمع. وأخذت مارغريت تستمع لصوت الطيور، وحاولت أن تنظر إليها عبر الأغصان، وانتقت لنفسها ضمة كبيرة من الزهور البرية الزهرية والصفراء لتأخذها معها إلى المنزل، وستضعها في الإناء الخزفي الذي كانت تستخدمه ماري روز للزهور، وستبدو جذابة جداً عند أول الدرج في الردهة. فرنسوا يحب الزهور في المنزل، والخالة انيتا تقول دائماً: إن هناك زهور جديدة دائماً في مكتبته، وهي تعرف، لأنها رأتها مرة عبر الباب المفتوح وهي تمر بالمكتبة.

بعد قليل تركتا الدرب المحدد تماماً لتتبعا درباً آخر بدا مهجوراً. والأغصان متراكمة فوقه هنا وهناك، وأخذت الأشجار الشائكة تجرح اقدامها، إنه درب غريب للسير فيه، ولكن لا بد أن سوزان تعرفه، واخيراً وصلتا إلى مكان فسيح عند سفح التل..

وتوقفت سوزان واستدارت لتنظر إلى شقيقتها.

ـ هذا هو المعبد، والنبع في مكان قريب. هل تحبين أن تنظري إليه؟

ونظرت مارغريت حولها مذهولة، في الفسحة كان هناك خرائب معبد قديم جداً بدا وكأن أحداً لم يزره منذ زمن طويل. وضمت باقة

الزهور إلى صدرها وتقدمت إلى الأمام، بشيء من الرهبة والخوف. من فوق المدخل المقوس والمكسور المؤدي إلى داخل المعبد، بدا وجه حجري يحدّق بها، بشكل حنون، مع أن ملامحه قد طمستها عوامل الزمن. من فوقه نقش لكلمات «أيتها الملكة المقدسة ساعدينا» واستدارت لتشارك مشاعرها مع شقيقتها، ولكن سوزان كانت تجلس على جذع مكسور تربط شريط حذائها. وعندما نظرت إليها كان لتقول لها فقط:

ـ فرنسوا طارحك الغرام ليلة أمس.. أليس كذلك؟

وأجفلت مارغريت.. الطريقة الفظة التي قالت بها الكلمات لا مجال للخطأ فيها فأجابتها ببرود:

ـ لقد عانقني فقط، هذا كل شيء.

ـ أوه مارغريت! لا لزوم للادّعاء أمامي.. فأنا أعرف كل شيء.. لقد علّمني ارمان.. هل تعلمين لماذا غازلك؟

طبعاً هي تعرف، ولكنها شعرت بالقرف منها. وقالت ببرود ايضاً.

ـ لا أظن أنني أرغب في أن اتحدث حول الأمر يا سوزان.. إنه.. شيء بيني وبين فرنسوا.

ـ هذا ما تظنين... والسبب ليس ما أنت تفكرين به.. هل تريدين أن أخبرك؟

ـ لست أفهم ما تعنينه.

ـ إذاً.. اسمعي. أتعلمين أن امنا تملك حصة في «كلوديزانج»؟ لا؟.. حسنا في حال لا تعرفين عن الأمر، إنه أفضل مكان لزراعة الكرمة في المنطقة. وأي مزارع كرمة يستغني عن عينيه في سبيل امتلاك حصة في «كلوديزانج» بسبب شهرتها. وفرنسوا يريدها مهما يكن الثمن. وهذا مما يجعل انتاجه يساوي ثروة هائلة إذا استطاع أن يضع الاسم عليه.

ـ أنا لا اعلم شيئاً عن هذا. ولكن ما شأن هذا بي وبفرنسوا؟

ـ أوه لا تكوني غبية يا مارغريت! ألا ترين الأمر؟

وقفزت سوزان عن الجذع واخذت تمشي حتى المعبد ثم تعود لتقف في وجه شقيقتها.

ـ اذا تزوجك سيصبح الكرم والمعصرة له.. وسيطلب من والدتنا ان تتركها لك. ألم تدركي هذا؟ إن عليه أن ينتظر سنتين ليكتسبها من خلالي، كما خططت أمنا دوماً. ولكن بهذه الطريقة، إذا تظاهر بأنه يحبك، سيحصل عليها بوقت أسرع.

وتوقفت، وحدّقت بها مارغريت مشدوهة، محاولة إدراك ما قالته في عقلها... فرنسوا يتظاهر بحبها ليستطيع اكتساب ملكية مزرعة كروم! هذا لا يصدق. جعلها تأثير هذا الكلام تشعر بالغثيان في أعماق قلبها.. آه.. كم كانت غبية... كم هي ساذجة!

ونظرت إلى سوزان دون أن تراها وهمست:

ـ لا يمكن أن يكون هذا صحيحاً! أنا.. أنا لا أصدق.

ـ إنها الحقيقة.. وإذا تزوجتيه ستعرفين.. وستصبحين نادمة... هل... هل طلب منك الزواج بعد؟.

ـ لقد.. تحدث عن الأمر.. ليلة أمس.

ـ لا يجب أن تتزوجيه.. لماذا لا تعودين إلى انكلترا إلى حيث تنتمين؟ نحن لا نريدك هنا.. أنت... لقد افسدت كل شيء! إنه صيف رهيب، سأقول لفرنسوا إنك ترغبين في السفر، وإنك تريدين الزواج من هنري جوردن. وسأقسم له. ومن الأفضل أن توافقي.. وإلا ستندمين.. ستندمان كلاكما وسأتأكد من هذا بنفسي!

ولم تسمع مارغريت صيحة سوزان الأخيرة المشوشة، ولم تدرك تماماً بأنها قد بدأت السير عائدة، وأنها بدأت تركض في الدرب عبر الغابة، وكأنها مصممة على أن تذهب فوراً إلى فرنسوا. وفكرت

مارغريت بأن الأمر لن يهمها لو فعلت، وتنهدت ثم انهارت على جذع الشجرة حيث كانت سوزان تجلس. لن تهتم مهما قالت له سوزان، فكرها كان مشوشاً، والشيء الوحيد الواضح كان أنها تريد أن تغادر «هوشيه ليزانج». حتى أنها لن تنتظر لرؤية أمها، ربما ستعود مباشرة إلى كونتربري حيث الحياة هناك أبسط وظاهرة أكثر، وتستطيع أن ترى ما يجري بوضوح.

ووجدت نفسها تنظر إلى الوجه الحجري الذي كان يحدق بها بشفقة وحنو.. أوه.. يا الله! لقد تفجرت الحقيقة أمامها وكأنها صاروخ ألعاب نارية ينفجر في ظلمة السماء. بالطبع! عندها سيتزوج فرنسوا من سوزان، كما خططت الوالدة تماماً، وسوزان هي الفتاة الأخرى، الفتاة التي لا تستطيع الزواج بعد، ولكن عندما تبلغ الثامنة عشرة.. أجل سوف يتزوجها عندئذ.

إذاً لقد احتسب فرنسوا بدقة الحب، الذي بدا وكأنه يقفز بنفسه ما بينه وبينها، وسهلت عليه الأمور بوقوعها في ذلك السحر الفرنسي... ومضى عليها وقت طويل حتى استطاعت أن تجمع شتات نفسها، وقوتها لتقف على قدميها ثانية، وعندها اكتشفت أن وجهها مبلل بالدموع، وكرهت فكرة العودة إلى المنزل، ورؤية وجه فرنسوا ثانية.. بعدما عرفته الآن. وتمنت يائسة أن تقابله سوزان أولاً، وأن تخبره بأنها تريد العودة إلى بريطانيا وإلى هنري جوردن.. وإذا واجهها بالأمر سوف تؤكد هذا له.. وسيكون هكذا أسهل عليها.. وسريع النهاية أكثر...

وعادت دموعها للانهمار ثانية...

١٠ ـ على نار الشك

وبدأت رحلة العودة وهي تتعثر عبر الغابة، وأعمتها أفكارها عن الجمال من حولها، وتركت باقة الأزهار البرية عند المعبد.

واستغرقها وقت طويل لتصل إلى القرية. وسارت في طريق خاطىء. وعادت إلى نفس المكان عدة مرات إلى أن وجدت نفسها اخيراً في ممر عبر شجيرات شائكة أوصلها إلى الطريق.

وتأخرت في الوصول إلى المنزل، ولكن فرنسوا لم يكن هناك. لم يكن هناك أحد سوى الخالة انيتا في المطبخ وكانت مشغولة بتحضير وجبة المساء.

ـ ألا يوجد أحد في المنزل يا خالة انيتا؟

وتفحصتها الخالة، ثم ظهرت الحدة في عينيها وهي تنظر إليها جيداً، وعلمت مارغريت أن مكافحتها للشجيرات تركت أثرها عليها، إضافة إلى أن وجهها كان مليئاً بالدموع. ودفعت شعرها إلى الوراء وقالت بتعب:

ـ لقد ضعت في الغابة... أردت البقاء والتفتيش عن النبع. هل سوزان في غرفتها؟ ألم تعد إلى البيت؟

ـ أجل لقد عادت يا حبيبتي، ولكنها أخذت الدراجة وذهبت إلى «لي فلوران» ستعود مع فرنسوا... لقد تأخرا..

ـ أجل.. سأصعد إلى غرفتي لأنظف نفسي قليلاً ثم سأنزل وأساعدك في العشاء.

ـ لا. لا.. لا حاجة لهذا، ارتاحي يا طفلتي العزيزة... تبدين تعبة جداً.

واستدارت مارغريت بسرعة، لأن كلمات الخالة الرقيقة جعلت الدموع تنفر من عينيها ثانية، وأدركت لأول مرة أنها قد اصبحت مولعة بخالة فرنسوا المسنة. وأنها تستطيع العيش معها بكل سعادة.

في غرفتها، غرفة الأصدقاء، وقفت تنظر من حولها دون هدف. لم يكن عندها الرغبة ان تفعل شيئاً. ولكن يجب أن تغير ثيابها. وأن تجعل نفسها لائقة المنظر. وارتدت ثوباً جميلاً، ثم نظرت إلى وجهها في المرآة. وضحكت يائسة. إنها تبدو ببساطة ايلين.. وأبسط من سوزان مرتين، لا بد أن فرنسوا يعرف هذا! لقد ابتلعت إطراءه وكلماته المعسولة بالكامل..

والتقطت الفرشاة وأخذت تمشط شعرها. وسمعت حركة في الطابق العلوي.. لا بد أنهما عادا، ولا بد أن سوزان قد أخبرته الآن أنها تريد العودة إلى صديقها الإنكليزي. وهذا سيدهشه، وربما سيقتنع. ولكنها ستؤكد اقتناعه. وعندها ستحصل سوزان على فرنسوا لنفسها، فهذا ما كانت تريده منذ زمن طويل، ليس لأنها تهوى التملك، بل لأن الوالدة قد خططت لهذا.

ودق أحدهم على الباب. ووضعت الفرشاة من يدها وقالت

«ادخل» وتوقعت أن تدخل سوزان، ولكن فرنسوا دخل ووقف عند الباب لوقت بدا وكأنه لن ينتهي. دون أن يقول شيئاً، بل كان ينظر إليها فقط، وعيناه شديدتا الزرقة. ونظرت إليه وشعرت بالاضطراب. إنها تحبه.. والآن بما أنها لن تحصل عليه عرفت كم هي فعلاً تحبه. إنها تحبه كفاية لأن تمضي في الزواج منه حتى ولو للمصلحة. أجل.. ستتزوجه ولو كان حبه مجرد ادّعاء، ولكنها تعلم أيضاً أن هذا مستحيل.. بسبب سوزان... الفتاة الأخرى.. شقيقتها.

ـ هل أنت بخير.؟ لقد قالت الخالة أنيتا أنك تعبة.. هل تحبين أن تشربي شيئاً؟

ـ أنا بخير تماماً.. شكراً لك يا فرنسوا. هل قالت لك سوزان؟

ـ لقد قالت إنك قررتي العودة إلى انكلترا، إلى صديقك! وأنا لا أصدق.. بالطبع.

وشحب وجه مارغريت أكثر من أي وقت مضى. والفرجت شفتاها وحدقت به دون أن تستطيع الكلام. وتقدم نحوها، وأقفل الباب بهدوء، ووقف قربها... قريباً جداً منها. ونظر إلى وجهها، وعيناه فيهما الجدية. وتمنت لو أنها تستطيع أن تكرهه.. أو على الأقل تشعر باللامبالاة تجاهه، ولكن مجرد النظر إليه أشعل مشاعرها.

ـ لقد تمادت شقيقتك هذه المرة كثيراً يا صغيرتي.. لقد طردتها من المنزل... وغداً ستذهب إلى ديجون.

ـ لا يا فرنسوا.. لا لزوم لإرسالها إلى ديجون.. إنها تقول الحقيقة.. لا أريد البقاء هنا وسأعود إلى انكلترا.

وتوقفت عن الكلام بشهقة ألم وهو يمسك ذراعها وأصابعه القاسية تضغط دون شفقة على لحمها..

ـ لا اظن هذا يا صغيرة.. فليس من السهل خداعي، في الليلة الماضية سمحت لي بمغازلتك، واعترفنا لبعضنا بحاجتنا لبعضنا

البعض. ليس بالكلام بل بشكل أعمق، وهذا حقيقي... ماذا جرى بينك وبين سوزان؟ وما هي القصص التي اختلقتها لك؟

وساد صمت قصير، ثم قالت له:

- قصة عن «كلو ديزانج».

- كلو ديزانج؟.. يا إلهي عما تتحدثين؟.. هيا... لنستمع إلى القصة. ماذا قالت لك سوزان بالضبط حول «كلو ديزانج». وجعلك فجأة تريدين العودة إلى انكلترا؟

- أرجوك.. أرجوك.. اتركني.. إنك تؤلمني!...

- أنا أنوي أن أؤلمك، أتظنين أنني سأتركك تهربين مني دون أن أقاتل من اجلك، أتعتقدين هذا؟ أريد أن أعرف كل شيء.

- أنت تعرف كل شيء.. أنا من كنت جاهلة ولا تعرف شيئاً. لم تقل لي ابداً إن أمي تريدك أن تتزوج سوزان، وإلا لما كنت...

- ماذا؟.. والآن اسمعي أيتها الإنكليزية الصغيرة...

الوالدة لا تريدني أن أتزوج من سوزان أبداً. وإذا أرادت فهذا ليس له علاقة بي، وليس له علاقة بمشاعري نحوك.. هل أخبرتك سوزان بهذا؟ وصدّقتها؟ وماذا قالت لك ايضاً؟ وماذا عن كلوديزانج؟ أخبريني الآن.. أنا أنوي أن أسمع كل شيء ولو اضطررت إلى إرغامك على قوله!

وأصبحت قناعة مارغريت مشوشة، إنه على حق، من حقه أن يسمع كل شيء.. وأخبرته.. وهي تصر على أسنانها:

- لقد عرفت أنك لو تزوجتني ستعطيني أمي.. ستعطينا، حصتها في كروم «كلوديزانج»، وقالت سوزان، إنك... إنك لا تحبني حقاً، بل كل ما تريده هو الكروم. وإنك.. إنك لا تريد الانتظار أكثر..

- حبيبتي... لا يجب أن تصدقي هذا، فلا شيء منه صحيح.... وأظن أنني أعرف أمك أكثر مما تعرفينها. كما أعرف

سوزان أفضل منك. ولن تفعل أمك شيء كهذا. حتى ولو توسلت إليها. فمزرعة العنب الصغيرة موعودة دائماً لسوزان، هدية عيد ميلادها الثامن عشر. وكل العائلة تعرف هذا. وهذا عادل بما فيه الكفاية كما أظن. أنت قد اعتني بك أقاربك الإنكليز. وسوزان سيعتني بها الجزء الفرنسي من العائلة.. أما أنا فلست راغباً في المزرعة. هل ظننت فعلاً أنني مهتم بها؟ ألا تعلمين أنني مكتفٍ بما عندي وبما تنتجه لي «لي فلوران». وإذا حصلت عليك وعندي «لي فلوران» فماذا أريد أكثر من الحياة؟ ما عدا طفل أو ربما اثنان.

وبينما هو يتكلم أخذها بين ذراعيه وضمها برفق، وأخذت الدموع تجري فوق خديها..

- ولكن أمي خططت...

- الوالدة ليس لديها خطط. ولو أردتي الحقيقة يا حبيبتي، سوزان من لديها الخطط، وكانت تحاول تنفيذها طوال هذا الصيف، وأؤكد لك أنها ستشفى من تخيلاتها. وكي أنقذ كرامتها ادّعيت أنني لا أعلم شيئاً. لقد لاحظت كل شيء. وكنت سأرسلها إلى نيس لولا أن أمك أرادت أن تتقارب ابنتيها، لذا أبقيتها هنا، وكذلك أنت، وصدقيني أو لا تصدقيني، كان هناك شيء في وجهك الغاضب باستمرار جذبني إليك.. منذ التقينا في كانتربري، وربما من قبل، ربما منذ التقيتك أول مرة في باريس، بعد أن عدتي من نزهتك الطويلة في المترو شاحبة مجروحة، ومتعنتة. مثل قطة برية لها أسنان حادة... والآن قولي لي إنك لا تنوين الهرب إلى انكلترا... قولي إنك تحبيني كما أحبك...

وتململت بين ذراعيه، وتذكرت تهديدات سوزان بأن تجعلهما يندمان. طالما أرادت أن تصادق شقيقتها، ولكن إذا تزوجت فرنسوا

ستجعل منها عدوة مدى العمر!

- أحبك يا فرنسوا.. ولكنني قبلت بالعودة إلى انكلترا. وسوزان ستغضب كثيراً إذا عرفت أنني سأبقى.. ستفعل شيئاً سخيفاً... وأنا أعلم أنها قد تفعل...

- لا أظن هذا.. وهي تعرف أنني لن أتحمل بعدك عني.. أوضحت لها هذا قبل أن آمرها بأن تجري عائدة إلى المنزل وتتوقف عن التدخل..

- فرنسوا.. أتعني أنها لم تعد معك إلى المنزل؟

- بالطبع لا.. فقد سئمت منها ومن ألاعيبها السخيفة!

- إذاً أين هي؟

- جالسة متجهمة الوجه في غرفتها.

- ولكنها ليست هنا.. الخالة قالت إنها معك، أتظن أنها ذهبت إلى المزرعة بدل أن تأتي إلى هنا؟ لقد قالت إنها ستجعلنا نندم...

ولم تزد في كلامها بل اندفعت إلى الباب وركضت نازلة الدرج. الأمر فظيع أن تفكر بأن سوزان في المزرعة تسمح لأرمان أن... حتى أن...

لم تكن تعلم ماذا يدور في ذهنها أن تفعل، ربما ستصرّ على فرنسوا أن يأخذها إلى هناك بالسيارة، ولكنها وجدت أنه لحق بها. وكان شاحب الوجه وعلمت أنه مهتم مثلها تماماً. وصاح بها.

- ابتعدي عن طريقي!

- أنا قادمة معك!

وخرجت الخالة انيتا من المطبخ لتستطلع الخبر، وفي نفس اللحظة فتح الباب الخلفي ووقفت سوزان هناك... وجهها مأساوي.. قميصها ممزق، ضفيرة من ضفائرها لا تزال تهتز بينما الأخرى انسدلت على وجهها، ووقفت جامدة وقد وجدت نفسها تواجه

ثلاثة أشخاص يحدّقون بها. ثم انفجرت بالبكاء، وطأطأت رأسها إلى الأرض وركضت إلى غرفة الجلوس. وشعرت مارغريت وكأن قلبها قد توقف. وللحظة لم تستطع الحراك، وهي تستعيد في أذنيها صوت ارمان يقول لها ما يرغب في أن يفعله معها ذلك المساء في الشارع خارج المنزل. ثم بسرعة تبعت الآخرين إلى الغرفة.

وكانت سوزان قد رمت نفسها على الصوفا تبكي بصوت مرتفع. وتقدمت منها الخالة انيتا ووضعت أصابعها الرقيقة على ذراعها، ولكن فرنسوا انتزع الفتاة بقسوة من كتفيها وقال بحدة:

- سوزان، هدئي نفسك.. واخبرينا ما حصل.

وجذبت سوزان نفسها منه وكأنها لا تطيق أن يلمسها وقالت وهي تشهق:

- لا تلمسني.. أريد.. أريد العودة إلى البيت.

ورمت نفسها ثانية على الصوفا، ثم باعدت بين أصابعها التي على وجهها كي تنظر بعين واحدة إلى الثلاثة الواقفين أمامها مشدوهين، ثم عادت إلى النحيب ثانية.

ونظرت الخالة انيتا متسائلة إلى فرنسوا، وقال بغضب:

- إنه ارمان دولان..

ثم التفت إلى سوزان وقال برقة:

- ماذا حدث يا حبيبتي؟ تمالكي نفسك قليلاً واخبرينا ماذا حصل..

ولكن نحيب سوزان ازداد، وتخيلت مارغريت أسوأ الأشياء وبدأت تلوم نفسها بمرارة. وقالت الخالة انيتا...

- طفلتي ستخبرني أنا.. أرجوكما اتركانا لوحدنا.

وأطاع فرنسوا الأمر كما فعلت مارغريت. وذهب إلى مكتبته بينما ذهبت إلى المطبخ وأغلقت الباب وراءها.

وبعد دقائق فتحت الخالة انيتا باب المطبخ وقالت لمارغريت بهدوء:

ـ لقد استعادت أختك وعيها يا طفلتي.. لقد ذهبت إلى ارمان في المزرعة، وكان سكراناً، فهاجمها، ثم عندما طالب بالمزيد، كان لدى الطفلة الغبية بعض العقل لتهرب، فمزق لها قميصها.. حسناً.. لن تعود إلى هذه الألاعيب ثانية، مع أنها تتمتع الآن بالدراما التي افتعلتها.

وتنفست مارغريت بارتياح، ثم عادت وهي متوترة إلى غرفة الجلوس، وكانت سوزان جالسة على الصوفا تشرب كوباً من الشاي، ويبدو عليها أنها تشعر باهميتها، ورغماً عن بعض التورم في عينيها فقد بدت أنها تستعيد وقاحتها بسرعة. فقالت بوقاحة لمارغريت:

ـ حسناً.. أهلاً بك لفرنسوا أو مارك أو هنري أو اي رجل تحبين.. فأنا لا أريد رؤية أي رجل ثانية... أبداً..! ولن يقنعني شيء بالزواج، مهما كانت خطط أمي... سأصبح راهبة.. كما أظن..

وخبأت مارغريت ابتسامة.. سوزان راهبة..؟ لا يمكن أبداً ولو بعد مليون سنة! ولكنها هزت رأسها بعطف وسألتها:

ـ هل تشعرين بتحسن الآن يا سوزان؟

ـ قليلاً.. ولكنني لن أتعشى الليلة.. فأنا متكدرة جداً. وسأذهب للنوم.. وغداً الخالة أنيتا ستأخذني إلى ديجون.. لقد وعدتني!

ـ وهل ستبقين هناك مع ليون وهنرييت؟

ـ لا.. سآخذ القطار وأذهب إلى نيس عند ليليان.. هذا ما سافعله.. سأهرب من الجميع..

وعندما أخبرت مارغريت فرنسوا بالأمر قال:

ـ حسناً.. يجب أن نسمح لها.. فهناك الكثير من الحركة في

نيس، وستنسى الأمر سريعاً. يوم أو يومين وستغرق إلى أذنيها بحب شخص ما، ولكن سيكون هناك مأساة أخرى عندما يحين موعد العودة إلى باريس وإلى المدرسة.. أما بالنسبة لرغبتها في أن تصبح راهبة، ستغير رأيها قريباً!

وشد مارغريت بين ذراعيه وتمتم وهو يمرر وجهه على جبينها:

ـ هل اختفت كل شكوكك حولي يا حبيبتي؟

ـ كلها..

ـ إذاً لم تدم شكوكك طويلاً؟ ولن تكوني خائفة لبقائك وحدك معي عندما تذهب شقيقتك؟

ـ سأكون مرعوبة...

وضحكت، وكان يجذبها أكثر إليه ويداه تشتدان من حولها والتقطت أنفاسها.. فها هي قد حصلت الآن على فرنسوا... على رجلها الفرنسي...

النهاية